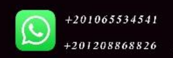
الحج إلى الحياة



- **الكتاب: الحج إلى الحياة**
- **المؤلف: أحمد دلول**
- **نوع العمل: رواية**
- **الطبعة الأولى 1442 هـ - 2020 م - القاهرة**
- **الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**
- **رقم الإيداع: 21256 / 2020**
- **الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6845-57-2**
- **الرقم الكودي في ببلومانيا: bl00389**
- **الغلاف: ببلومانيا**
- **تدقيق: ببلومانيا**
- تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببلومانيا
- مدير عام: جمال سليمان
- العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة
  عنوان (2): 29 شارع الكمال – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 002022402029 - 002026061014
- محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.bbibliomania.com

- للتواصل مع الكاتب: issalamino@gmail.com













الحج إلى الحياة

رواية

أحمد دلول





www.bbibliomania.com

2020

الحجٌّ إلى الحياة

رواية "فلسفية" ذات طابع صوفي

طبعة جديدة ومُنقَّحة

إهداء

إلى نبض قلبي، آدم ومايا
وإلى القلب نفسه الذي احتوى ذلك النبض
رفيقة دربي رانيا

أحمد دلول

درب الماء

إذا كنتَ نائماً
وإذا حلمتَ في نومكَ
وإذا ذهبتَ في حلمكَ إلى السماء
لتقطفَ زهرة جميلة وغريبة
وإذا وجدتَ الزهرة في يدكَ عند استيقاظك
فماذا تقول؟

صمويل تايلور كولريدج

في ذلك العالم الذي تملأه الظلال، كان الناس مشغولين عن ذواتهم بظلالهم، وكانوا يطعمونها ويسقونها أكثر مما يأكلون ويشربون. ولما كان للقوم عيون تهاب لقاء النور، فقد كان إدراكهم مقيدا بالظل، وكانوا يتشبثون بظلالهم، لأنهم لا يعرفون عن وجودهم الكثير سواها. لكن الظلال كانت سرعان ما تسأم من أصحابها، فتغافلهم وتنسلُّ منهم نحو النور.

وكان الغريب بين القوم، غالبا ما يُشقيه ظله؛ فقد كان ظله مشاكسا عنيدا، دائم التذمر والنحيب، ثرثارا، مشاغبا، مُعتلَّ المزاج. فإذا اشترى الغريب قوتا، كان الظل يحرن ويأنف الطعام، أو يُبَدّده؛ فيرميه من الأبواب والنوافذ. وكان إذا سقاه خمرا لكي يهدأ ويستكين، كانت عيون الظل تجحظ وعربدته تزيد. وما من مرة نشب شجار بينهما، إلا وكانت الغلبة

فيه للظل، مع أنه كان أمام الناس رعديدا جبانا، يداهنهم ويتملَّق لهم لكسب رضاهم.

ما من فراسة طبيب أو حكمة عرَّاف أعانت الغريب على تخليص ظله من عربدته وغرابة أطواره. وهكذا كانت الأيام تمضي والظل يزداد شحوبا ونحولا، والغريب يزداد حسرة وأسى.

ثم كان يوم عثر فيه الغريب على كأس شفَّافة، بريقها كالماس، فأخفى الكأس عن عيون الناس. حتى إذا جثم الليل، غافل ظله واختلى بكأسه، ونهل منها ما نهل، إلى أن يُخمد السُكرُ أشجانه ويسكن حاله، فيُسلم ظله للكرى، ثم يناجي كأسه وينام.

وذات ليلة بينما كان الظل يغطُّ في سُبات عميق، استيقظ الغريب على صوت مبهم كان يهتف من البعيد:

ـ إلى متى تبقى غريبا عن وجودك يا غريب؟

أجاب الغريب:

ـ لقد سئمتُ يا سيدي. فمن كان غريبا عن ظله، حلَّت الغربة بينه وبين كل شيء.

قال الهاتف:

ـ إن كانت قد أتعبتك الأشياء، فهات يدك وتعالَ لنذهب إلى ما وراءها.

أجاب الغريب بحيرة:

ـ ولكن لي ظلا عنيدا وهو لن يرافقني.

ـ اتركهُ وتعالَ.

سأل الغريب وقد تهدَّج صوته:

ـ ولكن في أي دار سأصبحُ إن أمسيتُ بدونه؟

ـ لا تفزع أيها الغريب. إن الإطلال على فضاء اللانهاية، لا يمرُّ حصرا بالنهاية. فأنت ستكون ضيفا في داري إلى حين، ثم تعود لظلك. أليس حريًّا بالمرء أن يعاين الدار التي سيعود للبقاء فيها؟

ـ ولكني أخشى من الذهاب بعيداً.

ـ فعلامَ تتذمر إذن؟

ـ إنه الظل يا مولاي، فهو مستبد متسلط. ولكم لقَّنته بأنه تابعي، ولكنه ما برح يأمر وينهي ويجبرني على اتباع خطاه؛ يتعثَّر فأقع، أتألم فيبكي. ذهبنا لنتحاكم أمام الشمس، فاختبأ ورائي وزعم أنه أنا!

ـ وكيف لمن يرزح تحت عبء شراع ومجدافين، بأن يسير في الصحراء دون أن يتعثَّر!

أنت للماء أيها الغريب.

ـ ولكن أين هو درب الماء؟

ـ تدبَّر أمر ظلك واتبعني. فإن ثبتَّ على طريقي، لا أبرحنك إلا عند مفترق الأبد.

ثم توارى الصوت، وبدأ الغريب يُتمتم ويتوسل، إلى أن استيقظ الظل على هذيان الغريب.

***

ترك الغريب أشياءه وجرَّ ظله وراءه، ثم مضى متثاقلا يبحث عن الطريق الذي أوحى به الصوت المبهم البعيد. وهناك مرَّ بقوم كانوا قد ورثوا عن السلف جرارا، لكي يقطعوا المسافة إلى النبع ويملأوها ماء. ولما كان النبع مستترا في مدى لا تطاله حواسهم، فقد كانوا يتباركون بجرارهم الفارغة، ينامون

بجانبها ويحلمون بالماء. وكانوا يقتلون بعضهم بعضا، كلما اختلفوا على تأويل حلمهم. وكان في شرعهم كل من يمتلك جَرَّة ولو كانت فارغة، اسمه تقي، وكل من يشرب الماء بدون جَرَّة، اسمه زنديق.

غادر الغريب القوم مُتمتما: "إن من كانوا على بُعد فهم من المعنى، لا بُدَّ أن يقتتلوا عند مفترق التأويل"

ثم سار إلى أن بلغ قوما، كانوا قد قطعوا بأفهامهم المسافة إلى تخوم المعنى، ولكن المسافة أسرتهم بجمالها، وما أن تحرَّروا من قيد جمالها، حتى قيَّدوا به فضاء المعنى؛ إذ كانوا قد سئموا من حمل جرار لا ماء فيها، فكسروا جرارهم ثم أنكروا النبع، وصاروا يلعنون الماء وينسبون إليه كل شرّ ورذيلة.

تعجب الغريب من حال القوم، فارتحل عنهم ومضى، إلى أن مرَّ بأقوام من كل عرق ولون؛ مرَّ بدجَّالين ومشعوذين كانوا يُمنّون العطاشى باستحضار الماء، وهم أنفسهم يضنيهم الظمأ. وسمع حكايات عن الماء الزلال، ممن يقبعون في مستنقعات آسنة. ورأى الناس أفواجا، يبتهلون ويتوسلون لنيل الماء، ثم لا يلبثون أن يموتوا من الظمأ.

***

يمَّمَ الغريب حواسه شطر قبلة أوحى بها قلبه. وما طال به المسير، حتى مرَّ بشيخ بهي المحيا، وقور الهيئة، ذي طلعة سخية الإشراق، ولحية كأنها مغزولة من نور. كان يقف على مفترق طرق وينادي بلهفة:

ـ يا أيها الناس، إنكم تسيرون في دائرة يدور فيها الوقت في الاتجاه المعاكس، وعندما يُكمل الوقت دورته فيكم، سوف يرميكم في هاوية العدم.

يا من ترفلون بالحياة، إن مساراتها كلّها دائرية، والدوائر جميعها ستفنى.

يا أولاد الشهوة، علامَ أنتم هائمون، وعلى أي مرمى تتلهفون؟ إن العدم ينتظركم وراء الباب، فإلى أين ستهربون من فضيحة الفناء؟

اقترب الغريب من الشيخ وهمس في أذنه:

ـ ألديك ماء؟

أجاب الشيخ:

ـ أهلا بك يا ولدي. إنني أتألم لبلاء الناس، ولكنهم يشيحون بوجوههم عني. ولكن قل لي أيها الغريب، أتريد ماء لتشرب أم تريد ماء لتبحر؟

ـ ليس الشرب غايتي أيها الشيخ؛ فلقد أمضيتُ دربي كله وأنا أستجدي الماء، ولم أُمنح إلا ملحا، أو ماء آسنا لا يطفئ الظمأ. إن ظمئي لا يطفئه إلا النبع، وأخشى أن دربي أقصر من أن أبلغ النبع. أما البحر، فكل من دلّني عليه أبعدني عنه، فارأف بحالي وأنت ترى ما يثقل كاهلي. فإن كنت حقا تملك ماء، امنحني بعضه، وما طلبته إلا لأغسل ظمأي وأمضي فيما تبقى من مسيري.

ـ وهل خبرتَ الطريق يا غريب؟

ـ لقد هتف لي هاتف من الغيب وحدّثني عن الأبد. فسرتُ إليه لا دليل لي سوى قلبي، إلى أن صار حالي كحال كل الحائرين على دروب الأبدية الضائعة.

قطّب الشيخ ثم قال بدهشة:

- وهل ضاعت الأبدية؟!

فتساءل الغريب بحيرة:

- وهل كانوا قد وجدوها أصلا؟

- إنهم يهربون منها فحسب يا ولدي، يهيمون وراء غريزة الحياة فتقودهم إلى ضدها؛ إن الحياة حالها حال المرأة، تحاول أن تأسر الرجل، ولكنها لا تركن إليه إلى أن يتحرر منها. فحذارِ من أن تعبث بك تلك الغاوية.

ابتسم الغريب بحسرة ثم قال:

- لقد أغوتني بالخلاص أيها الوقور؛ فسرتُ وراءها إلى أقاصي الأرض بحثا عنه، ولكني لم أجد الخلاص لا على الأرض ولا في من عليها. ثم استنجدتُ بالسماء، همتُ نحوها وبحثتُ في طيّاتها. ناديتُ إلى أن سخر مني الصدى، وما من مجيب. ثم عدتُ من السماء إلى رشدي وسألته عمّا يخلّصني، فأجاب: "لاشيء". بحثتُ بين الأشياء عن اللاشيء، فلم أعثر على شيء. فإن كنتَ ممن يعرفون الحكاية، أرشدني إلى مكمن اللاشيء.

- إنه يكمن في كل شيء يا ولدي، وكذلك فإن الحكاية كلها تكمن في اللاحكاية. أما من يبحثون عن حكايتهم في السماء، فهم كمن يبحث عن الثمرة خارج البستان، مع أنهم موجودون داخل البستان، وثمار البستان لذيذة المذاق، طعمها من عسل.

فلقد منحتهم الشمس فيضا من نورها، ليكونوا وليتكئوا بها. لكن كينونتهم غافلتهم وخبأت النور في عمق كهف، ثم أغلقت الكهف بصخرة أناهم بإحكام إلى حين. فجلسوا

متكئين على الصخرة، ينسجون عن الشمس الأساطير. ثم يتضرعون ويصلّون لها، لكي تمنَّ عليهم بمنحة من نورها، مع أنهم يديرون ظهورهم لمنحة الشمس القابعة في عمق الكهف. أما الحقيقة الحقة؛ فلا وجود للشمس، إلا في إطلالة من فوهة النور الكامنة في أعماقنا، وكل ما عدا ذلك باطل.

غالبا ما يجهل الإنسان جوهره يا غريب. فلما كان الكنز مدفونا في الباطن، ولما كانت الحواس هي أدوات التنقيب، وتلك الحواس مصوَّبة نحو الخارج. فكان الإنسان ينسج خلاصه من وهم حواسه وأفكاره ويتوسل إليهم لكي يمنحوه وسيلة للخلود والبقاء. فصنعوا له من رغباته مرآة لكي يتماهى بها ويبدد خوفه، ولكن المرآة خذلته وتماهت به، فعكست حقيقة حاله. ولما فزع مما رأى، أسلم المرآة لخياله، فقذف بها خياله إلى أعالٍ بعيدةٍ ما بعد السماء، لكي تعكس خوفه أمنا، فصار البعيد هو معيار الخلاص. مع أن نبع الخلاص هو جوهرة مكنونة في أعماقه بعيدا عن عيون الزمن، لا يداخلها تغيير أو فناء. ومهما ابتعد البُعدُ لا يُبعده عنها، لأنها هي الماهية منه، ومهما اقترب القرب لا يقرِّب الحواس إلى إدراكها، لأن ما بينهما بينا، لا يردمه قرب ولا بُعد.

إن أفهام الناس على مراتب يا ولدي. فأولئك الذين لم يسعفهم فهمهم ليحاولوا العبور إلى وعورة الداخل، أوجدوا لأنفسهم معابرا إلى السراب البعيد، وركنوا إلى نواميس وشعائر لكي يهدِّئوا من روع ظمئهم. ولكن لا بأس أيها الغريب، فمن عجز عن بلوغ النبع، فليكتفِ بماء الجداول، حتى ولو كانت موحلة. أما نحن فطريقنا واحد، وإني ممن خبروا الطريق.

سأل الغريب:

ـ وهل بلغت المنتهى أيها الشيخ؟

أجاب الشيخ باسما:

ـ لقد قارب الليل على الهبوط يا غريب، ولن أدعك تتخبط في دروب العتمة وحدك. فكن ضيفي، إن لدي ما تحبّ وتشتهي.

***

سار الغريب مع الشيخ إلى أن بلغا كوخا مركونا عند سفح جبل. تحيط به حديقة فيها زرع كثير، ثم دلفا إلى الداخل.

قال الشيخ وهو يشعل سراجا كان يتدلى من سقف الكوخ:

ـ لقد أمضيتُ شبابي متنقلا بين ذرى الجبال، إلى أن عثرتُ على ضالتي. ثم عدتُ إلى الناس لأبشرهم بما رأيت، وابتنيت هذا الكوخ لأداري به شيخوختي وأستر ظلي.

صمت الشيخ وقد انشغل بإعداد بعض الطعام، ثم أردف:

ـ لا مناص لنا من الطعام يا غريب، كي لا يجوع القطيع أكثر مما ينبغي، فيغافلنا ويهرب. ثم لا بد من أن يكون الراعي عادلا، على أن يكون سيدا للقطيع لا واحدا منه.

ابتسم الغريب مُمتنا، ثم راحت عيونه تتجول في أنحاء الكوخ، الذي كان أنيسا يعبق برائحة ذكية، تجلب إلى النفس البهجة والسكينة، مثلما كانت رؤية الشيخ تبعث على الطمأنينة والدعة؛ إذ كان وجهه بهي السمت، جلي الطلة، صريح القسمات، كل ما فيه ينطق بالبركة والسلام. وكان حضوره غامرا، كنور فجر جسور؛ كان حضورا مبهما وجليا،

آسرا ومحررا في آن، يتغلغل في من يحضره، كحضور الماء في تربة عطشى.

أكل الغريب بعد أن كان قد أضناه السغب، ثم ما لبث أن ذهب ليخلد إلى النوم. وبينما كان مستلقيا يحاول إغواء الكرى، ليزور جفنيه، رأى الشيخ جالسا على عقبي قدميه، منتصب الظهر، صامتا، ساكنا، وكأنه صنم.

عندما استيقظ الغريب لم يجد الشيخ. ولمّا خرج من الكوخ، وجده في الحديقة يقلّم بعض الأغصان، وكانت هيئته تومئ بأن نهاره لم يكن قد ابتدأ للتو. ألقى عليه تحية الصباح، فرد الشيخ التحية بفرح، ثم اقترب من الغريب وحدَّق في وجهه قائلا:

- يبدو لي بأنك قد اخذت قسطا لا بأس به من الراحة.

- وهذا ما تشعر به دخيلتي أيها الشيخ.

- حسنا يا غريب، فلتبدأ نهارك إذن بتناول شيء من الفاكهة؛ إن طاقة الحياة تتوفر بسخاء في الفواكه الطازجة.

ثم قطف تفاحة من غصن قريب منه، وأعطاها للغريب قائلا:

- تلك هي أحبُّ الثمار إلى قلبي.

ثم أضاف مداعبا:

- مع أنها ثمرة الخطيئة، أكلناها فعرفنا، ولذلك طردنا من الجنة. ولكن بما أننا عرفنا، فلا بد لنا من إيجاد حيلة لكي نعود إلى موطننا، ولو بإطلالة قبل ميعادنا؛ فلقد قايض الإنسان هذه الثمرة بالخلود، ثم هام وراء شهوات الدنيا. ولكي يلتفَّ على الفناء، لا بد له من إفناء شهواته في هذه الدنيا.

أكل الغريب التفاحة وهو يتأمل في أقوال الشيخ وهيئته، ثم قال:

ـ تباركت يداك أيها الوقور. ما أشهى ثمارك وما أبهى حديقتك.

أجاب الشيخ:

ـ أنا حرٌّ من الملكية يا غريب، وكل ما لدي هو مشاع؛ فلقد ابتنيتُ كوخا لنفسي ولمن ينشدون السكينة من بعد طول عناء. وزرعتُ أشجارا لأقتات منها وليتذوق حلو ثمارها من يشتهي من عابري السبيل. وروضتُ خيولا لتأخذني إلى البعيد، وليعتليها من يطيب له السفر والكشف.

سار الشيخ فسار معه الغريب، ثم ما لبث أن وقف واستدار نحوه، كمن يريد أن يتدارك أمرا فاته:

ـ أتعرف يا غريب، ما هي أشد أنواع الملكية قسوة؟

حملق الغريب في وجه الشيخ مترقبا الجواب.

ـ إنها ملكية الظلال، فذلك هو العبء الذي لا يوازيه عبء، قال الشيخ. ثم أتبع وهو يأخذ بذراع الغريب ليتابعا سيرهما، وقد بدت على ملامحه أمارات الجد.

ـ إن أمرك معه يشغلني يا ولدي، فما بالكما تسيران كما يسير الغريب مع الغريب؟

ـ إن لي معه قصة أيها الشيخ، فلا أنا أفهمه، ولا هو يشبهني؛ فعلى الرغم من أن لي قامة شامخة وعيونا ثاقبة، فإن ظلي أحدب شاحب تائه العيون. ومع أن همتي لا تعرف الكلل، فإن ظلي كسول متطفل. وهو ما برح يعاندني ولا يطيع لي أمرا؛

فكلما هممت بالمسير، تراه يحرن ويأبى أن يرافقني، أو يتربع أمامي ليسدَّ علي سبلي. وكلما حاولت أن أخلد للنوم، تراه يرقص ويعربد حولي. وكلما صفعته مرة أعاد لي الصفعة مرات. أغويته بالبحر، فتعفف عن الماء. أنذرته بالفراق، فضحك وسخر مني. ولكم راودتني نفسي بأن أقذف به إلى الجحيم وأعود من حيث أتيت. ولكن ما أجهلني بتلك الرحلة، وما أضعفني أمام ذلك الفراق. وهكذا، بعد أن ضاقت بي الحيل، لم أجد حلا سوى أن أرميه خلفي وأجرَّه عنوة، إلى أن يأتي الليل وأخلد للنوم، فيتنكر هو بهيئة أخرى ويسحبني في طرق معاكسة. ولكم أخشى أن نبقى على هذا الحال، إلى أن يأتي اليوم الذي نفترق فيه قسرا لا طواعية.

قال الشيخ:

ـ إن من صفات الأصل أن يكون سيد ظله، إلا إذا كان ذلك الأصل مقيدا عاجزا عن الفعل؛ ذلك أن الأشياء السالبة في حركتها، ظلها تابع للشمس، أما الأشياء الفاعلة، فظلها تابع لأمرها. حتى ولو كانت اللعبة في النهاية هي لعبة الشمس. فإذا كان الأصل مقيدا، فكيف للظل أن يكون راضيا ومطاوعا لذلك الأصل!

سأل الغريب:

ـ ولكن كيف يمكن إطلاق ذلك الأصل؟

أجاب الشيخ:

ـ عندما يفلح المرء في إطلاق ذاته، يصبح المرء ذاته قادرا على تجاوز نفسه واستقصاء ما هو خارج حدودها.

ـ ولكن كيف للمرء أن يتجاوز نفسه، ما دام هو نفسه؟

ـ على الرغم من أنه هو نفسه، و لكنه ليس هو، ذلك أنك أنت وظلك لستما واحد؛ فالظل يشي بهيئة صاحبه، ولكنه ليس هو.

ـ ولكن إطلاق الأشياء من سجن ظلالها يعني انتفاء وجودها.

ـ يا غريب، إن ظاهر الشيء هو مجرد ظل لذاته. فلا تثق بخدعة الحواس، ذلك أن الموجود الحقيقي هو الجوهر.

توقف الشيخ، وقد تشاغل بتقليم غصن كان يبرز من إحدى الأشجار، ثم التفت إلى الغريب قائلا:

ـ تخيل أيها الغريب، أن هناك حصانا سجينا داخل عربة، وهو يتوق لأن تسير تلك العربة. ولكن لكي يتحقق ذلك، لا بد له من أن يتجاوزها، بأن يخرج منها ويتحرر من أسرها، لكي يجرّها، بعد أن يمايز ذاته عنها. وذلك بأن يدرك بأنه هو شيء آخر غير العربة، وبأن مكانه ليس بداخلها، ولا هو تابع لها، وإنما العكس؛ فعلى الرغم من أن جميع الناس يمتلكون خيولا أصيلة، ولكن مع ذلك فإن عربة البعض قد تكون متوقفة، أو أن حركتها تكون محكومة بتضاريس الطريق أو حركة الرياح. ولن يغفر لها أصالة الحصان الأسير في داخلها، ما دام الحصان موجودا في المكان الخطأ.

أيها الغريب، إن القارب لا يمكن أن يُبحر بُمجرَّد أن تملأه ماء على أرض يابسة. والحصان من العربة، هو كالماء من القارب. فالماء في الحقيقة هو العلة المستترة وراء وجود القارب، وهو الموجب لحركته. وبذلك فهو الذي يمنحه السبب والمبرر لوجوده، ولولاه لما كان. وكذلك فإن الحصان هو سبب لوجود العربة وضرورة لسيرها. أو هو منها بمثابة الماهية، وهي منه

بمثابة الظل. مثلما أنت ماهية ظلك، الذي تجرّه ويسحبك، كحصان يحاول جرَّ عربة ليحركها، مع أنه سجين في داخلها. وهي تشدّه إلى حدودها الضيقة ليدور فيها، فلا هي تتحرك ولا هو يسير.

أما النخبة من البشر، فهم لا يكتفون بإطلاق الحصان من داخل العربة، لكي يجرّها. بل ويحررونه منها، ومن أي وثاق يربطه بها. لينطلق حرًّا من عبئها، بعيدا في سهول اللانهاية. ثم ليعود بعد ذلك منتشيا، مستنيرا، لا تحدّه عربة أو وجود.

سأل الغريب:

ـ إذا كان الحصان قد أفلح في تجاوز العربة، فكيف لي أن أتجاوز ظلي؟

أجاب الشيخ:

ـ ما عليك سوى أن تجعل الشمس قبلتك، لا يشغلنك عنها شاغل. أما إذا صبرتَ وصابرتَ إلى أن تكبِّد الشمس السماء، تصبح أنت الحُرّ؛ من ظلك ومما في الوجود من ظلال.

ـ زدني من علمك أيها الشيخ.

ـ حسنا يا ولدي. ولكن لكي تطلق الكامن في داخلك، عليك أن تتجرَّد. ولكي تتجرَّد، لا بد من أن تطلَّ على الأشياء من علٍ.

***

ما وراء الحواس

الحقيقي فينا صامت، ولكن الاكتسابي ثرثار.
جبران خليل جبران

عندما كانت الشمس تجنح للمغيب، أسرج الشيخ حصانين وأنطلق بهما مع الغريب نحو هامة جبل باذخ، حيث التفا على وعورته، إلى أن بلغا منه ذروة عند حلول الغسق. وهنالك أحضر الشيخ بعض الحطب وأوقد نارا، ثم جلس يراقبها ويتأمل وهجها، وهو يدفع الحطب بتؤدة إلى بؤرة النار، بعود كان قد بدأ يحترق. بينما كان وهج النار ينعكس على قسمات وجهه المفعمة بالحياة، فيمنحها المزيد من التألق والإشراق.

مال الغريب نحوه وسأله:

- كم طال بك المسير في دروب الحياة أيها الجليل؟

أجاب الشيخ:

- فصول أربعة.

- ولكن سماءك صافية، ونجومك ما تزال حاضرة تشعُّ، لم ينل من ألقها تعب الطريق!

- ليس التعب هو سبب شرود الذهن يا غريب، وإنما شرود الذهن هو سبب التعب. فثمة طريق تنسلُّ ما وراء الفصول، من يعتلي صهوتها ينتصر على الزمن.

عاد الشيخ يتأمل في وهج النار، ثم استطرد:

ـ إن طريق الروح هي تجوال بين الذرى؛ فكل صمت داخلي هو ذروة، وكل فكرة هي هُوَّة. والطريق هي جسور تردم المسافة ما بين الذرى، بأن تصبح المسافة كلها ذرى. أما مدّ تلك الجسور، فهو أقرب إلى الكفّ من قربه إلى الفعل. ولكن النفس دائمة الجنوح نحو الفعل، لكي تسمو نحو ذرى السعادة والسلام. وهي ترنو للترقي من حفرة خوائها من خلال التفكير، مع أن التفكير نفسه هو حُفر ما بين الذرى.

تلك هي النفس يا ولدي. وما دام التفكير هو رديف وجودها، فهي أشبه بالحفرة، لا تحقق وجودها إلا بالخواء، ومن يتبع هواها، هو كمن يبحث عن السلام في ضده. فلا تثق بشهوات النفس وأحابيلها يا غريب.

كان الليل قد سجى، فألقم الشيخ بعض الحطب للنار التي كانت تراقص ريحا خفيفة تهب على ذروة الجبل، بينما كان الغريب يراقب النار مقطّب الحاجبين، وهو يتفكر فيما قاله الشيخ. ثم ما لبث أن سأله:

ـ ولكن كيف للكفّ عن الفعل أن يدفع سيرورة الأشياء إلى الأمام؟ ثم كيف للنفس التي تتلوى شوقا للمضي أماما، أن تكفَّ عن تحريك العربة نحو هدفها؟ وإلا فكيف للعربة أن تسير؟

ـ يا غريب، ما دمت تؤمن بالتفكير كمفهوم للحركة التي تولّد سيرا، فحالك حال ذلك الحصان الذي يتحرك داخل العربة محاولا تحريكها. وما العربة في أحد أوجهها سوى النفس التي خامتها هي التفكير. وكلما ازداد التفكير، كلما ازدادت

العربة ثقلا على من يجرّها، أو اصبحت أكثر كثافة ومناعة على من هو سجين بداخلها.

ـ فما هي ماهية الحركة التي تمنح السير إذن؟

ـ عندما تتوقف مطحنة التفكير، تسير عجلة الروح، وبذلك يولد الفعل الباطني من رحم اللافعل. إن النفس تغوينا للخلاص بالآلية الخطأ يا ولدي، حالها حال المكان الذي يجاهد لكي يتحرر من سطوة الزمان، وبذلك يقع في أسره.

استقام الغريب في جلسته وأخذ ينصت.

تابع الشيخ:

ـ إن المكان دائم الدوران هربا من الزمان، مع أن الزمان نفسه هو دوران المكان. أو أنه نسيج ينسجه دولاب دوران الكواكب وحركة دقائق موادها. أعني أيها الغريب؛ إن الإنسان دائم التفكير بحثا عن السعادة، مع أن السعادة نفسها تكمن في كبح التفكير. والأمر نفسه ينطبق على السلام والخلاص ومعايشة الخلود.

فلو توقفت الكواكب عن الدوران، وكفَّت دقائق موادها عن الحركة لوقت ما، لتوقف الزمان، ولما كان هناك شيء اسمه وقت، ولأصبح المكان بدون الوقت ذاتا خالصة، ولكان ذلك الكفُّ هو معبر المكان من الزمان إلى الأبد.

لا شك بأن ذلك لا يمكن أن يحصل. ولكن القصد الذي نشدته، أن في عالمنا الداخلي ثمة شيئا يمكن تسميته بمطحنة التفكير، وهي دائمة الدوران حول مركز وجوهر وجودنا الثابت، تدور بسرعة أو ببطء، تبعا للاضطراب أو

الاستقرار الداخلي الذي نعايشه. ولكنها لا تتوقف من نفسها أبدا، ولا حتى أثناء نومنا.

فإذا توقفت أثناء النوم للحظات قليلة، تحصل في تلك اللحظات رؤى صادقة، نستطيع من خلالها أن نرى الغيب أو ظلاله، حيث تكون الروح قد فارقت الجسد، ودخلت في عالم هو خارج عالم الفكر والحواس. فتستطيع وقتها بأن تطلَّ على وجودنا من خارجه، لتتجول في أي من مساحات المكان أو فضاء الزمان؛ فقد تطوف نحو المستقبل كاشفة لنا عمّا سيحدث فيه، أو نحو الماضي لتكشف لنا عن ماهية ما حدث فيه، أو ما يحدث الآن في الحاضر، ولو في أماكن أخرى بعيدة. وكل ما تنقله إلينا الروح يصلنا غالبا على شكل رموز، لا يحلّ طلاسمها إلا أهلها. مع وجوب التفريق بين الأحلام التي مصدرها النفس، والتي هي مُجرَّد صدى لمخاوفنا ورغباتنا، وبين الأحلام أو الرؤى التي مصدرها الروح، فتلك هي صدى للوجود بأسره. وذلك النوع من الرؤى هو في الحقيقة ما ألهم خطواتي لكي تسلك طريق الروح.

أما من أفلح في إيقاف مطحنة التفكير تلك في صحوه لمدة ما، يكون قد دخل في صمت داخلي مطلق، وتماهى مع ذلك الجوهر السرمدي الثابت الذي في داخله، لانتفاء حجاب النفس ما بينهما؛ كالأرض إذا تماهت مع الشمس وذابت فيها، فلم يعد هناك دوران ولا أرض، ليتلاشى وقتها كل من الزمان والمكان إلى حين ويحلّ مكانهما المطلق. ثم عندما يعود المرء إلى وجوده، يكون تبر اللاوجود قد غمر الوجود، ويكون المرء قد

أدرك الخالد وراء الفاني، والثابت وراء المتغير، ويكون قد عرف هويته وانتصر على الزمن.

وجم الغريب لبرهة ثم قال:

ـ وهل توقف الزمان أيها الجليل؟

فاضت عيون الشيخ فجأة بالدموع، ولكن سيمات وجهه لم تتغير ولم يخامرها أي أثر لفرح أو حزن أو أسى.

كان الحصانان يرنوان إلى الشيخ بحنين وكأنهما يؤكدان له الولاء والطاعة. أما الغريب فقد كان يحدّق في وجهه، كما يحدّق الطفل في تعابير وجه أمه، محاولا أن يستلهم منه شيئا ما.

قال الشيخ:

ـ لقد توقف كل شيء، حتى النبض، وغاب كل شيء، حتى الغياب نفسه؛ فعندما صار الإدراك نقيا من كل الشوائب، زال الفاصل ما بين المقيد والمطلق. لقد أفلحت الروح بالتجرّد من أشيائها يا غريب، وامتلأت الحياة بذاتها حتى الذروة، إلى أن مات الموت نفسه رهبة من الحياة.

ـ وهل عرفته؟

ـ لو لم أذهب إلى ما وراء المعرفة، لما جهلت سواه.

ـ هو موجود إذن.

ـ لو لم يكن موجودا لما كان هناك شيء، ولو كان موجودا لما كان هو.

ـ ولكن من هو؟

أجال الشيخ نظره في البعيد بنظرة ثاقبة، كانت أشبه برمح متأهب يتتبع هدفا ما، ثم نظر إلى الغريب قائلا:

ـ هو سرمدي في الزمان، ولكن لا يمسّه وقت، وموجود بلا مكان في كل مكان. يتغلغل فينا وفي كل شيء، ولكنه ليس بشيء. وهو والكون واحد، ولكنه ليس الكون.

ذلك أن جميع الأسباب مغيِّرة لما تسببه، متغيرة بما يسببها، إلا هو، لأنه سبب الأسباب الكامن وراء السلسلة برمتها. وهو لا يخضع لها، لأنه ليس جزءا منها، ولا هو السلسلة كلها. ومن ثم فإن فعل السبب الأول يكمن في أفعال ورَدات أفعال السلسلة برمتها، ولكنه ليس هي؛ فهو المتعالي عنها بالجوهر، الكامن فيها بالتأثير، المتغلغل في جميع أحوالها. ذلك أن الروح هي ليست الجسد، وكذلك فإنه هو ليس الكون، وإنما هو منه كالروح من الجسد.

ـ ولكن ما هو؟

صمت الشيخ وأشاح بوجهه عن الغريب، وقد بدا عليه شيء من الحيرة. ثم ما لبث أن التفت نحوه قائلا:

ـ لا تقرب الماهية يا غريب، ولا تشغل بها تفكيرك حتى لا تبتعد أكثر.

ـ كيف ذلك أيها المستنير؟

ـ لو طلبتُ منك أن ترى أريج الزهور، هل تستطيع فعل ذلك؟

ـ هذا غير ممكن.

ـ ماذا عن سماع لونها أو اشتمام شكلها؟

ـ هذا محال.

ـ و لكن ماذا لو رجوتك أن تسعى إلى تحقيق ذلك مخلصا، بنية صادقة وقلب سليم؟

ـ هذا لن يغير في الأمر شيئا.

ـ لماذا يا غريب؟

ـ لأنك تطلب مني أن أستعمل الحاسة الخطأ للإدراك. فكل حاسة عاجزة عن الإدراك خارج نطاق عملها.

ـ وكذلك فإن الحواس والأفكار مجتمعة تعجز عن إدراك ماهيته أو وصفه، لأن ذلك خارج عن نطاق عملها. ومهما صدقت نوايانا فإننا لن نستطيع أن نفقه شيئا عن كنهه من خلال دأب الحواس أو كد التفكير. ولذلك فليس هناك معرفة يمكن نقلها عنه أو وصفه من خلالها، وإنما هناك معايشة.

إن الحواس يا غريب لا تدرك سوى الأجزاء، ونحن لا نملك حاسة شاملة أو فهما كليا، لنستطيع من خلالهما الإحاطة بالكلّ أو النفوذ إليه. ومع أن الحواس تدرك بنور الروح، غير أنها عاجزة عن إدراك نور تلك الروح، لأن الحواس لا تدرك سوى الظلال، والشأن نفسه شأن التفكير. وتلك هي خدعة وجودنا يا ولدي.

ـ فماذا عن التفكير، هل هو من صفاته، أم أنه هو الفكر ذاته؟

ابتسم الشيخ قائلا:

ـ لا هذا ولا ذاك يا غريب، ولا هو أي شيء يمكن أن يتطرّق إليه فهمك. وما دام هو الكامن ما وراء أفهامنا وأفكارنا، المُسبب لها والمحجوب عنا بها؛ فأفهامنا منه هي كالعتمة من النور، لا يحضر الثاني إلا عند زوال الأول. ولذلك فإن الإنسان لا يمكن أن يعرف عنه شيئا، إلا عبر تجربة تأخذه إلى ما وراء فهمه. وما عدا ذلك، فإن أي سعي لتحصيل معرفة عنه، هو أشبه بسعي ظلك لأن يعرف إذا كان النور مثله، له أيد وأرجل ورأس.

فمهما اجتهد الظل لن يستطيع التيقن من ماهية النور الذي هو علته، لأن ذلك اليقين يلزم بأن يصبح الظل مغمورا بالنور، ولكن ذلك ينتج عنه زوال الظل نفسه. فإذا صار نورا، أدرك ذاته بفهم آخر خارج عن فهمه، كونه عاد لأصله الذي كانه قبل أن يكون.

ـ اغفر لي ثرثرتي أيها المستنير، ولكن الجانب المظلم مني يتساءل: ماذا لو كان الظل هو علَّة نفسه، ولم يكن هناك نور أصلا. ومن ثم، إذا كانت العامة من البشر لن يدركوا شيئا عن علة وجودهم، إلا بعد موتهم. فكيف يدرك من يموت، ما دام الجانب المدرك فينا قد مات.

أجاب الشيخ:

ـ اسمع هذه الحكاية يا ولدي.

***

الغَسق والسَحر

من وجد الحياة قبل موته، لن يموت أبدا.

فراس السواح

كان الغسق والسَحر جالسين يتسامران على أطراف الليل، فقال السَحر:

- ما زلتَ فتيا أيها الغسق، وما يزال ليلك طويلا. أما أنا فقد غزا الشيب مفرقي، ولم يبقَ لي في هذه العتمة سوى النذر اليسير، وإني أحدُس بأن موعد لقائي مع الشمس قد دنا.

قال الغسق متململا:

- عن أي شمس تتحدث أيها العجوز؟

- إنها تلك القوة الخفية المستترة وراء الأشياء، التي تمدّ الكون بالطاقة والحياة. أفلا تؤمن بها؟

- أنا لا أؤمن بالغيب، قال الغسق، فلو كانت الشمس موجودة حقا، لماذا لا تشرق إذن وتكشف لنا عن نفسها، لكي ندرك وجودها باليقين، بدلا من الاعتقاد والتخمين؟

أجاب السحر:

- ولكن يا صديقي، نحن ظل لشمس لا نراها، لأننا محجوبون عنها بفعل الكثافة. فإذا أشرقت الشمس، اختفى الظل الذي هو نحن. ولذلك فإن إدراكنا لنور الشمس مرهون بزوالنا.

أيها الغسق، إن الظلام في الكون هو نفي، والنور هو الإثبات. فكيف للنفي أن يلتقي بالإثبات، ما دام الإثبات ينفي ضده! أما إذا أردت معايشة الحقيقة، فلا بُدَّ لك من تجاوز فرديتك، إلى فضاء الكون اللامتناهي، وبذلك تعثر على النور الذي هو علَّة وجودك؛ فالنور الذي تعجز عن إدراكه حواسك، قد تراه بعيون قلبك، إن أطلقته قبل أن يباغتك الفجر.

أجاب الغسق:

- إن ما لا تدركه الحواس هو مُجَرَّد وهم ابتدعه خيالنا لمداراة مخاوفنا وتبرير جهلنا. فنحن لا شك سنفنى في آخر الليل، ولكن لا تحدثني عما وراء الليل من شمس ونهار. فليس وراء الظلام سوى العدم. ثم كيف لي أن أؤمن بما لا أرى!

- و لكن الليل الذي نعيشه هو ظل للحقيقة أيها الغسق. وهناك على الطرف الآخر من وجودنا، يكمن الوجه الجلي للحقيقة في وضح النهار. فالظلام الذي نحن مجبولون منه هو مجرد استثناء، والنور هو القاعدة. ومن ثم، فإن رحلتنا مع الظلمة سوف تنتهي، لأن الفجر آت لا محالة، ليدفن ظلمة الليل بأنواره، ولسوف ننتقل من حال إلى حال، ولن يفنى منا إلا العتمة. فالأثير الذي نسكنه، كان بالأمس مفعما بالنور، وهو سيكون كذلك غدا. وحتى لو فني منا الشكل والمظهر، فإن هناك مخاضا سوف نولد بعده أحرارا، ونعود إلى موطننا، لنكون فيه نحن ونور الشمس واحد.

ضحك الغسق وكان صدى ضحكه يتردد في أرجاء الليل، وكان يقول في نفسه:

- ما أشقى ذلك السَحر العجوز؛ يقايض الحقيقة بالوهم، ويماري في حقيقة الليل الذي يعيش، ليؤمن بخرافة الشمس التي لا يرى.

لكن الشمس كانت على الجانب الآخر من وجوده، وهو يسعى نحوها من حيث لا يدري. ولم يمض وقت طويل حتى انقلب الغسق سَحرا، ثم ما لبث أن سمع طرقا مهيبا على بابه، حيث كان النهار قد بدأ بإزاحة لثام الكثافة، ليظهر ذاته، ودخل نور مبهم غامر.

لقد انبلج الفجر وامتصّ بنوره قوامه، فذاب في النور، ثم لم يعرف أحد عن مآله شيئا؛ فالذي يذوب كنهه في النور، لا يرجع عن صوته أي صدى، ولن يعود ليحدّث الناس عما رأى. إلا من كان من صفوة البشر، الذين عثروا على الشمس قبل مطلع فجرهم. فأولئك هم الذين عثروا على الأبد.

***

طقوس الفرح

فقط أولئك الذين يغامرون بالذهاب بعيدا
يمكنهم أن يعرفوا، كم من البُعد يستطيع أن يذهب الإنسان.

ت.س.إليوت

كان الشيخ غالبا ما يأكل مما يزرع في حديقته، وكان يُجلّ جميع الكائنات، ويأنس خاصة للخيول والطيور منها، ويرفض الإساءة إلى أي كائن حي، ولا يأكل اللحم أبدا. فقد كان يقول مازحا "دع اللحوم للواحم" وكان يصوم لفترات طويلة، إلا عن الفاكهة واللبن، وذلك ما كان يعينه على تفتح بصيرته وإطفاء شهواته؛ إذ كان قد قضى جلَّ حياته متبتلا، لا يعاشر النساء أبدا، لإصراره على استئصال شهوات نفسه قاطبة.

وكانت الإقامة عند الشيخ قد راقت للغريب. وكان الشيخ قد استأنس بضيفه وراح يُلقّنه من معارفه وأسراره. ثم لم يمض وقت طويل، حتى تعلم الغريب على يد الشيخ لغة جديدة للاتصال بداخله وللتماس مع أبعاده الكامنة.

إذ صار يمارس التأمل الروحي بانتظام وصبر وهو يردد مع أنفاسه الكلمة المقدسة. وصار قادرا على تخزين طاقة الحياة ونشرها في خلايا جسده، بضبط إيقاع مجرى الهواء في منخريه، وهو يجلس متصالب الساقين، مستقيم الظهر، هادئ النَفس،

ساكن الجسد. كما بات قادرا على الثبات في الوضعيات الساكنة بصبر وانضباط لمدة طويلة ودون أي جهد. ثم سرعان ما أصبح وعيه أكثر شمولا ، وحاله أكثر هدوءا واتزانا؛ إذ صار متحررا من الخوف، ينعم بالوضوح والسلام ، ممتلئا بالطاقة حتى الناصية.

كان الشيخ يرصد ما ينجزه الغريب، فيقول مبتهجا:

ـ إن الآلهة قد باحت بأسرارها للقلة من البشر، فلقنتهم طقوس الفرح، ليخلصوا وليبشِّروا الناس بالخلاص.

أما الظل، فقد كان يشدو ويترنم وكأنه ثمل، فيسأله الغريب مداعبا:

ـ ماذا دهاك أيها الظل، ألم تكن في الأمس القريب تبكي وتنتحب؟

فيجيب الظل:

ـ لقد كان لكل منّا وجهة. أما الآن وقد توحد حالنا ، فقد بتُّ أؤمن بأن طريقنا واحد.

وكان من عادة الشيخ أن يستيقظ عند بزوغ الفجر، فيخلد لنفسه في خلوة صباحية، ثم يمضي بعض الوقت في العناية بحديقته وخيوله، ويجلس بعد ذلك مع الغريب في ظل دوحة عند طرف الحديقة، ليُنهله من مَعين حكمته وعلمه.

أسرَّ الغريب ذات مرة لمعلمه قائلا:

ـ لقد بتُّ أشعر بالقرب من شيء ما ، وصار في داخلي توق ملحاح يستحثني للوصول.

أجاب الشيخ:

ـ إن في ذلك دلالة على مثابرتك يا ولدي، ولكن صبرا على ثمارك إلى أن يحين وقت قطافها؛ فلقد أتقن الفحم معاشرة الزمن إلى أن صار ماسا، وما الماس سوى فحم مضاف إليه قيمة الزمن، وأنت ما تزال في مقتبل العمر يا غريب. فأحسن معاشرة الزمن بصبر، ذلك أن الطريق لا يزال فيه شظف كثير وتضاريس حَرون.

ـ ولكني بتُّ أشعر أن كل خطوة أخطوها، تملأ الخطوة التي تليها شغفا لقطع تلك المسافة.

ـ ليس هناك مسافة يا غريب، وإنما هو مجرَّد بُعد.

ـ فحدثني إذن أيها المعلم، عن الحال الذي لجمتَ به خطواتك جموح ذلك البعد.

أسند الشيخ رأسه إلى جذع الدوحة وأخذ يعبث بلحيته، ثم قال:

ـ لقد همستُ في أذن الحضور، فأسمعني بوح الغياب. ثم أردف وهو يشبك ذراعيه على صدره، وقد تألقت عيناه ولاحت على ثغره ابتسامة خفيفة:

ـ بعد طول عناء وضنك، كنت أتوق إلى خلوة تجمعني بها، لأطفئَ نار شهوتي؛ فدخلت داري، واعتصمت في غرفتي العلوية. رتَّبتُ أشيائي ومنحتهم أشياءهم، ثم أرسلتُ أمسي في نزهة ليلهو مع غده بعيدا عن حديقتي، وتركتُ الأشياء للأشياء لتغوي بعضها.

ثم دلفتُ في سراديب نفسي خلسة؛ حيث غافلت الفكر وذهبت إلى ما وراءه، وجلستُ أسترقّ السمع، لأنعم بإيقاع الصمت، لطالما أنستُ به نفسي. ولكن ما لبث أن صمت الصمت، وتعفف

حتى عن إدراك صمته، فتركني على شفا حيرة، لم يوقعني فيها سوى نسمات طيبة ذكية، كانت تهب من نافذتي؛ حيث انتشى جناح فهمي، وطار بعيدا بدوني. وهناك انعقد لسان فطنتي وتعطّلت حواسي. ثم رأيتني هائما في سراديب نفسي، أبحث عن مخرج إليها. ولكنني خرجت منها إلى الجانب الآخر، فوجدتني أخلع نفسي عني، كما يخلع المسافر حذاءه الضيق. ثم كان وجود لم يكن لي فيه أي وجود، لقد كنت حُرًا حتى مني، ولم يك ثمة شيء، سوى نور مبهم، مجرَّد من الصفات، عثرت بنوره على أفق، أطللت منه على الأشياء كلها.

ثم انحنى الشيخ نحو الغريب وقال:

ـ أيها الغريب، ما دمتَ شديد التوق للخلاص، فهاك أبجديته. وإني لأوصيك بثلاث:

أولها: لا سعادة إلا بصفاء الإدراك، سواء كان وعيك منصبًّا على أنفاسك وخلايا جسدك، أو على نجم موطنه عمق السماء. ولكن اعلم بأن أنفاسك وخلايا جسدك هم أقرب إلى اللّه من ذلك النجم، وبأن إدراكهم إدراكا متصلا بلا انقطاع، هو الحقيقة التي ترأب الصدع ما بين الأرض والسماء. فليكن إدراك خلايا جسدك هو شغلك الشاغل، ولتكن أنفاسك عميقة، موزونة، واعية، هادئة؛ ذلك أن التنفس هو صلة الوصل ما بين الذات الفردية وذات الكون، فإذا رحُب التنفس وتناغم، قويت، وإذا انقطع، انقطعت. واعلم بأن ذلك الصنف من الإدراك هو عبادة من دون صلاة، وتفكُّر من دون تفكير، يعي ما لا تعيه نفسك، ويقرّب لك البعيد الذي تشتهي، ويبعد عنك الخوف والحزن والألم. فاخلد إليه بضمير نقي.

وثانيها: لا حريّة ولا سلام في قفص الفردية؛ ذلك أن الأنا الفردية تحترق وتحرق، و لكنها لا تضيء ولا تمنح نورا.
أما ثالثها: لا قدسية إلا للروح؛ فلا تعتدِ على ذي روح، لا بحق ولا بغير حق.

أيها الغريب، إن التفكير الواعي هو أشبه بالتجديف في قارب بالماء، بغية الوصول إلى وجهة محددة. أما شرود اللب، فهو أشبه بالتجديف على أرض يابسة، يهدر طاقتك ويعطب مجدافيك. وهذا ما نسميه في شرعنا كفرا.
ولكي تبحر أيها الغريب، لا تنتظر من الأشياء أن تنصفك، بل اسعَ إلى عتق تفكيرك من أسرها ما استطعت إلى ذلك من سبيل؛ فإن أنت تحرّرتَ من الأشياء وأشغلت نفسك بالحقيقة الكامنة في داخلك، طاوعتك في انشغالك الأشياء وصار زمامها طوع يديك، حتى أنها تأتيك ساجدة وناصيتها تلامس الأرض. أما إذا أشغلت تفكيرك بالأشياء، فقدتَ سلطانك عليها وأضعت خلاصك.
ثم عليك عندما تستوعي أفكاري، أن تتحرر منها، ولا تشغلن نفسك بالتفكير من أجل إيجاد وسيلة لكبح التفكير، ذلك أنه لا يمكن إطفاء النار بقبس منها. وعوضا عن ذلك، خذ خطوة إلى الوراء، ثم ابتعد عن النار وراقبها من البعيد، ولسوف تخمد من نفسها. لأنك أنت من يمنحها الوقود من خلال التصاقك بها.
وكذلك عليك أن تعي بأنك جزء من كل، وبأن لا سعادة أو خلاص للجزء، إلا إذا أدرك انتماءه لكليته، ووجد ذاته في

الحياة الكونية المشتملة على جميع الكائنات. عندها يزول الحزن والكدر، وتضمحل الشهوة الفردية، حيث تصبح السعادة هي سعادة الكل؛ ذلك أن الفردية هي قفص مُغلق في فضاء مفتوح، والطير الحكيم لا يتمسك بالقفص ولا تسعده ملكيته له.

نحن في الحقيقة غالبا ما نتجاهل الأنا الكلية، مع أنها تتقاطع مع ذاتنا الحقة. ونميل عوضا عن ذلك إلى التمسك بالأنا الفردية، بكل ما فيها من خداع وتملق وإلحاح على الشهوات. وهذا من أسباب شقاء البشر.

فحذار أن تربط مصيرك بأناك الفردية أو تنسب هويتك لها؛ لأنها في الحقيقة هي "الهو" وليست أنت. وكذلك لأن من أولويات أبجدية الخلاص، اجتثاث "الهو"، الذي يتنكر بقناع "الأنا"، والسعي إلى عزله عن ذاتك ومراقبته كموضوع؛ أي عليك أن تتحرَّر من انتمائك إليه، وأن تأخذ صفة المشاهد الحيادي حياله ما استطعت. ولكن حذار من الابتعاد كثيرا إلا بدليل.

أما القتل يا غريب، فهو أقبح ضروب الجهل، وهو شر الآثام جميعا؛ فلقد ترك الله في الكائنات أمانة من ذاته، ولذلك وجب علينا تقديس جميع الكائنات، حبّا وإجلالا لذات الله.

وفي الحقيقة، أن سبب الهلع والذعر الذي يصيب الكائن الحي الذي يتعرض لخطر يهدده بالموت، هو ناتج عن خوفه من انفصال فرديته عن بعدها الإلهي، من دون أن يدري. ودفاعه عن حياته هو بمثابة السعي لأن ينجو بالله الكامن فيه؛ فهو يدافع عن الإلهي فيه، حتى لا يصبح جسده جيفة نتنة ويفنى. نحن

نحبُّ اللّه أكثر مما نعتقد، ولكننا نجهل ذلك، فنهاب لقاءه ولا نبحث عنه لذاته، لأننا غالبا ما نجهل ماهيته.

فاعلم يا غريب، بأنك عندما تعتدي على ذي روح، إنما تعتدي على حرمة اللّه ذاتها وعلى ذاتك؛ لأننا كل، والكل هو واحد.

سأل الغريب:

- ولكن لماذا يجب أن تنحصر رأفتنا على ذوي الأرواح يا معلم. ولا تمتدّ لتشمل كل شيء، بما في ذلك النباتات الحية أو حتى الجماد، ما دام اللّه كامنا في كل شيء؟

كان الشيخ ينصت ويومئ برأسه، ثم قال:

- هذا صواب يا ولدي؛ ولذلك يتوجَّب على العاقل أن يتصالح مع كل الأشياء، وأن يتعامل معها برفق ولين، وأن يوقف جميع أنواع العداء لمحيطه بكل ما فيه. ولكنه حتى ولو أكل من النبات والثمر، أو نبش الأرض ونحت الحجر، لقضاء حاجة تتطلبها استمرارية الحياة، إلا أن للروح مقاما آخر.

فلو شبّهنا الكون بجسد إنسان، فإن روح الإنسان التي تمدّه بالحياة، كامنة في جسده كله. مع أن في ذلك الجسد مثلا شعر وأظافر، فيهم حياة بدون روح. وفيه سوائل ومواد، لا حياة فيهم ولا روح، ولكن مع ذلك فإن الروح كامنة في منظومة الجسد كله، ومتشرّبة فيه بكليته.

وكذلك فإن اللّه يكمن في جميع الأشياء، بما في ذلك الجماد؛ كذات محتجبة، ولولا كمونه فيها لما كانت. وتلك الذات في النبات هي الحياة. أما الكائنات الحية فذاتها هي الروح، والروح هي تاج الذوات جميعا، وتتويج لانعكاس سر

الكون في الكائنات. وهي التي تمنح الحياة للنفس، بحواسها وإحساسها وتفكيرها وشهوتها ولذتها وألمها؛ فالروح هي التي تحيي النفس ولا تحيا بها، وتميتها ولا تموت بموتها، وهي التي تمنح الحياة للنبات، وتحفظ الوجود للأشياء. تتبع ولا تتبع، كائنة بدون كينونة أو كيان، لا قدسية إلا لها، ولا وجود أو حياة إلا بها، وهي واللّه واحد.

وبالمِثل، فإن عناصر الماء يا غريب، تتغلغل في الهواء وكذلك في الغيوم، مثلما تتغلغل في ماء النبع. ولكن من كان له فاه، لا سقيا له إلا من الماء. مع أن ذات الماء كامنة أيضا في الهواء والغيوم، ولكن ذوي الأفواه لا ارتواء لهم من الهواء أو الغيوم، إلا عندما تتجلى عناصرها في أقدس صورها وتكون ماء.

نحن وجميع الكائنات ذوي الأفواه يا غريب، ورأس الحكمة أن نرأف بكل ذي روح؛ إنسانا كان أم ذئبا، دابة أم حشرة، لأن الجوهر فينا واحد.

ـ حسنا أيها المستنير، ولكن ما دام هو كامن فينا، وما دام هو الواحد المطلق. فكيف للواحد أن يكمن في الكثرة، وكيف للمطلق أن يكون حبيس المقيد؟

ـ اجلس إلي بقرب يا غريب، قال الشيخ.

اقترب الغريب منه وأنصت.

ـ يا ولدي، إن ما بداخلنا هو قبسا منه فحسب؛ فهو المطلق بذاته عن القيود، ونحن الجزء المقيَّد منه بنا، فإذا زلنا صرنا هو. أي لكي نكونه لا بد من أن يزول البرزخ ما بيننا وبينه، ولكن ذلك البرزخ هو نحن.

فالفرد منا هو أشبه بفقاعة هائمة في الفضاء، والفقاعة هي الجزء المقيَّد من الفضاء الكلي، بالفقاعة نفسها. فإذا زالت الفقاعة، ذاب فضاؤها المحدود في الفضاء الكلي. ومن ثم فإن وجود فقاعات كثيرة في الفضاء، لا يعني تقييد ذلك الفضاء الكلي، وإنما يعني تقييد فضاء الفقاعات إلى حين فحسب.

أيها الغريب، إن ذاتنا هي ليست سوى فيض من ذاته، والماء إذ يعطش لا يرتوي إلا بذاته، إذ يتوق لأن يفيض نحو أصله؛ فالماء كامن في الإناء، والإناء كذلك مغمور بالماء، ولكن كثافة الإناء تحجب عنه حقيقة ذاته، فلا تريه سوى الظلال. أما من أفلح في إطلاق ذاته من الإناء، أدرك حقيقتها وذاق طعم الماء. مع أنه في ورده، لم يبقَ من حاله الطليقة سوى ذلك الماء؛ فينهل الماء من ذاته، كما ينهل النهر من نبعه. حتى إذا عاد المرء إلى حاله، أصبح الارتواء ممتلئا بذاته، فيشعر المرء بحلاوة ما نهل. مع أن من نهل في الحقيقة، لم يكن سوى الماء ذاته المتمثل بالروح، وليس ذلك الإناء، المتمثل بالنفس أو الجسد.

كان الشيخ يحاول أن يصقل فهم تلميذه من جميع جوانبه، لإعانته على الرحيل بتؤدة إلى ما وراء ذلك الفهم، فأتبع قائلا:

ولكنها الكثافة يا غريب؛ إذ يمكن تشبيه الإنسان كذلك، بجرَّة من ظلام، جوفها مملوء بالنور، وتغوص في بحر من النور. والنور دائم الحنين لملاقاة أصله، لكن الجرَّة تمارس كثافة وجودها، بأن تحجب النور عن أصله وتحتفظ به لنفسها.

ثم اقترب الشيخ وهمس في أذن الغريب قائلا:

- فإذا فاض النور نحو أصله، صار هو هو.

سأل الغريب:

- ولكنه إذا صار هو هو، يستطيع حينها أن يتحكم بمصير الكون، فيغيّر نظامه ثم يعبث بقوانينه كما يشاء!

- أيها الغريب، لا بُدَّ في ذلك الزمن المُحدَّد من تجرُّده، أن يتجرَّد المُستنير من استطاعته ومن أمنياته ومن نفسه وشخصه وتفكيره قاطبة، ولو لم يتجرَّد من جميع تلك الأشياء ومن التجرُّد نفسه، لما بلغ ذلك المقام؛ حيث تكون الفردية قد زالت، ولم يبقَ أحد سوى اللّه. أما عن الإخلال بنظام الكون، فذلك ليس بمعجزة، لأن نظام الكون نفسه هو المعجزة.

ومن ثم، فإن على المرء أن يدرك الفارق مابين الخرافة والمعجزة؛ ذلك أن من استنار أو اقترب من مقام الاستنارة، تحلّ به بَركة إلهية تمده بفطنة وبأس إلهيين، لا يمتلكهما أي من عامة البشر؛ إذ يصبح قادرا في حياته على اجتراح نوع من الخوارق في نفسه أو في بعض ما حوله، على الرغم من أنف كل ما هو ذاتي وموضوعي.

كان الغريب قد بدأ يغوص في أفكاره، متمعنا فيما سمع، حين أيقظه الشيخ من غفلته قائلا:

- هيّا أيها الغريب، لقد حان الوقت للاحتفال بالحقيقة المستترة في داخلنا. ثم انقضى قسط من النهار وهما جالسان يتأملان.

***

جذور الأخلاق

ابحث عن جذور الأخلاق في داخلك؛ فثمار شجرها أشهى من تلك التي تنبت على الأرض، أو من تلك التي تضرب جذورها بعيدا في السماء.

غير بعيد عن حديقة الشيخ، حطَّت قافلة رحالها. وكان فيها بشر من أعراق وأجناس وألوان عدّة. وكانوا يصطحبون دوابهم وعليها أمتعتهم وزادهم، ويلوّحون براياتهم وينشدون الأهازيج. وكان يبدو أنهم قد توقفوا فجأة، لحسم أمر كانوا قد اختلفوا عليه. ثم ما لبثت أن تعالت الأصوات وأشرعت السيوف، وكان المشهد يُنذر بوقوع شرّ مستطير.

كان الشيخ والغريب يطلّان من طرف الحديقة ويراقبان الجموع الغاضبة.

فسأل الغريب، وقد اعتلت وجهه الدهشة:

- ما عسى أن يكون سبب خلافهم؟

أجاب الشيخ:

- ما زالوا على هذه العربدة منذ أن بدأوا المسير؛ كل يريد أن يستحوذ على المرعى لدوابه، وهم لا يتورعون عن سرقة بعضهم بعضا، ويستعبد القوي فيهم الضعيف، وكل يبَجّل دابته، ويقدّس الدرب الذي تسلكه، وهكذا يزداد الصدام كلما تشابكت الدروب.

ـ ومتى بدأوا المسير؟

ـ منذ أن كانوا.

ـ ولكن ألم يتعلموا من دروس ماضيهم، ليجدوا حلا لخلافهم؟

ـ كلا يا غريب، لأنهم يحملون بذور الخلاف في داخلهم.

ـ أليس من واجبنا أن نصلح بينهم ونرشدهم إلى طريق الخلاص؟

ـ إنهم أكثر مما تعتقد، وتلك الجلبة لا تواتي أن نكلم أحدا عن الخلاص، إلا من كان لديه الميل أو الفهم، وإلا فإنهم سينقلبون ضدنا. وما خرجت يوما لأنادي بين الناس وأدعوهم للخلاص، إلا بحثا عمن هم من خامتك. فإذا لم تكن قادرا على ترتيب فوضى الأشياء من حولك، أدِر لها ظهرك، كي لا تنتقل الفوضى إلى داخلك. فبعد قليل سوف يطلقون غرائزهم من عقالها ولن نستطيع أن نفعل لهم شيئا. فلنركن إلى الجانب الآخر من الحديقة بعيدا عن الضجيج.

سار الرجلان نحو الدوحة عند طرف الحديقة، ثم جلسا في ظلها. فقال الشيخ:

ـ إن سبب شقاء البشر يا غريب، هو ليس بالضرورة سوء نواياهم، وإنما جهلهم بحقيقة الخلاص، أو بالطريق التي تؤدي إليها. فمن افتقدوا شمولية الفهم، حالهم كحال قوم أرادوا أن يبتنوا برجا من طين، ليقفوا فوقه ويطلّوا منه على الأفق البعيد. ولكنهم ما لبثوا في زحمة سعيهم، أن جعلوا برج الطين مبتغاهم وغايتهم. فلما مضوا ناشدين الطين ولم يجدوه على ذرى الجبال، ساروا إلى قعر الوادي، وابتنوا فيه برجا من طين، لكي يطلّوا منه على الأفق البعيد.

فعلى الرغم من أننا جميعا شموس ذات ضياء، ومتساوون في القيمة والجوهر. إلا أن أفهام البشر متفاوتة، كتفاوت فهم الأسماك عن فهم الطيور، وما بينهما ممن يدبّون على الأرض ويزحفون. ولذلك فإن الأنبياء والقديسين لم يبوحوا من الحقيقة إلا بالجزء الذي يرضي أفهام الناس، ذلك أن أفهام العامة لا تحتمل دائما القرب من الحقيقة.

ليس هناك خلاص للقطعان يا ولدي؛ ولذلك فنحن لا نؤمن بالجماعة ولا ندعوا إلى صلاحها، وإنما نؤمن بالفرد ونسعى إلى خلاصه. وخلاص الفرد كامن في داخله، وقانونه الأخلاقي كذلك. ليس لأن الأخلاق هي أمر فطري أو موروث في الإنسان. وإنما لأن ما اكتسبناه من معرفة باطنية من خلال تجاربنا، كانت قد أرشدتنا، بأن هنالك قانونا صارما في داخلنا، يحكم تبعات سلوكنا على باطننا، مثلما هنالك قانون يحكم الوجود بموجوداته، بما في ذلك عواقب أفعال الكائنات على ردات أفعالها.

فالنهي عن القتل، هو ليس فقط دفاعا عن الضحية، أو مجرَّد سعي لصون سلامة الجماعة. وإنما هو أساسا، دفاعا عن القاتل الذي يعتدي بفعله هذا على قدسية ذاته من حيث لا يدري.

أما النهي عن السرقة، فذلك لأنها بخلاف العمل والسعي الرصين لكسب أسباب العيش، هي فعل مُسبَب بالخوف و مُسبب أو معزز له. وهي ليست بالضرورة فعل متصل بالحاضر، وإنما هي غالبا، عكس للماضي على المستقبل وجعله امتدادا له؛ ذلك أن سبب السرقة غالبا، هو ليس مجرَّد عوز محتاج للقمة تقيته، أو لأمر يفتقده الآن. وإنما سببها هو عوز لأشياء كان المرء قد

افتقدها في الماضي، وبالتالي فهو يخشى من فقدانها في المستقبل. حتى ولو كانت بحوزته الآن، ولا ينازعه عليها أحد.

ثم أن مالك الشيء يبقى يفتقده، ما دام هو مملوكا له. فالأشياء في الحقيقة هي التي تملكنا، ما لم نتحرر من ملكيتنا لها. ولكن السارق حاله حال البخيل، الذي يبقى مملوكا للأشياء إن امتلكها؛ فهو لا ينظر إلى الأشياء على أنها موضوع مستقل عن ذاته وموجود لخدمتها، وإنما يعتبرها جزءا من ذاته، فيدمجها معها، ثم يخشى أن يحرر نفسه منها، كي لا يفقد ذاته بفقدها. وهو كذلك يحجب القوت عن يومه لكي يقيت غده. ولكن ذلك الغد يبقى غدا مؤجلا، ولا يصبح حاضرا أبدا، لكي يهنأ صاحبه بذلك القوت. وهو عادة لا ينغمس ولا ينعم بما لديه في الحاضر، ما دام حاضره مُحاصَر ما بين خوفين؛ خوف من عوز يتوقع بأنه سيأتي، هو صدى لخوف من عوز قد مضى. ومن ثم، فإن الهدر الحقيقي للطاقة، لا يحدث بسبب الانشغال في الأعمال التي ننجزها في الحاضر، حتى ولو كانت شاقة، وإنما من الانشغال فيما عايشناه في الماضي، أو فيما سنعايشه في المستقبل. والسارق حاضره مرهون لضمان أسباب الأمان للمستقبل، الذي سلبه إياه ما مضى. ولكنه هو أصلا لا يشعر بالأمان تجاه الماضي، فكيف له أن يشعر بالأمان تجاه مستقبل، كان هو نفسه قد خلق الآلية لجعله انعكاسا وامتدادا لما مضى، من حيث لا يدري!

وكذلك فإن الحسَد هو أشبه بسهم نطلقه في فضاء حالنا، ومهما ابتعد السهم، فلا هدف له في النهاية سوى صاحبه، الذي

يحاول تسديد سهمه نحو موضوع خارجي ما. ولكن حتى ولو أصابه، فإن السهم سوف يرتد ثانية ليصيب ذات راميه.

والحقد قد يدفع بصاحبه لأن يحرق شجرة تقيته بثمارها، لكي يطهو عليها طعام يومه، ثم لا يتورَّع عن شتم عبثية الحياة التي حرمته من الثمر. والأولى بالمرء أن يتسامح وأن يثق بعدالة الحياة وبالقادم من أيامها. حتى لو اعتقد بأنها مجرد ظلال زائلة، وما نحن إلا ظلال كذلك. والأولى به أيضا، أن يثق بتناغم الوجود وبسلوك موجوداته وبنوايا مَن حوله مِن البشر؛ ذلك أن الثقة ولو أخطأت، تجلب لصاحبها من الطمأنينة والسلام ما لا يجلبه الشك ولو أصاب. فثقة عمياء خير من شك بصير.

أما التسامح، فهو حال من كبر حاله، ومن ثم، فإن على المرء أن يبدأ بمسامحة نفسه أولا؛ فإذا أذنبتَ، تحرر من ذنبك، لأنك لست أنت من اقترفه، وإنما من كانك عند اقتراف ذلك الذنب.

ثم عليك بالصدق الصارم والابتعاد عن الكذب يا غريب. وما الكذب سوى صخرة نرميها من علٍ بسهولة ويسر، ولكن الصخرة تبقى مشدودة إلى راميها. ومهما طال الوقت أو الحبل، فإنها سوف تجرّه وراءها إلى حيث لا يريد.

- ولكن كم من حاجة قضاها أصحابها بالكذب أيها المعلم!

- ومع ذلك فإن خطواتهم تبقى مَدِينة لدروب عليها أن تمشيها؛ إن الكذب يا غريب هو حال إنسان مسكون بخوف ما، وهو يسعى لأن يزيّف شكله أو شكل ما حوله، بحثا عن التكيف والأمان، أو عن الفائدة التي تعزز له التكيف والأمان. فبدلا من أن يتصالح مع الواقع ليستمد منه الأمان، وذلك بأن

يعكس حقيقة الواقع على نفسه، لتسعى للتناغم مع ما حولها. تجده يعكس خوفه على الأشياء، بأن يقنّعها بقناع الكذب أو المغالاة والتهويل. أي أنه يشوه الأشياء بأن يسكبها في قالب خوفه، ولكن في ذلك تدعيما لخوفه وترسيخا له. وحتى لو كان ذلك الخوف غير مرئي للآخرين، إلا أن صاحبه يبقى فاقدا للتناغم والسلام، وبالتالي فاقدا للسعادة.

- ولكن قد يستغل الآخرون ثقتنا بهم و صدقنا غير المشروط تجاههم، ويعتبرون ذلك بلاهة. بينما يعتبرون كذبهم ومراوغتهم حنكة وحذاقة!

- تذكر أيها الغريب، بأن الثقة بالآخرين لا تعني بأن يكون الإنسان غافلا عما حوله، وبأن الصدق هو ليس الاعتراف أمام الكاهن الخطأ.

***

أحرار بإرادتنا، أم عبيد لإرادة اللّه؟

الذين يَصِلون إلى درجة عليا من العظمة فوق الأرض،
لا يصلونها إلا عن طريق الانتباه الرزين.

الأوبانيشاد

بعد مثابرة ومِران على الطقوس، التي كان يعلِّمه إياها الشيخ، صار الغريب يشعر بأن هناك شيئا ما في داخله قد بات يُشعّ، وبأنه أصبح هناك تناغم ما بين خطواته وخطوات ظله، كراقصين انتشيا بالنغم، فتوافق نبضهما وتوحَّد بينهما الحال والإيقاع؛ لقد بات يسكنه شعور مبهم سلس، أشبه بنشوة تترقرق ما بين الغيبوبة واليقظة، وكان ذلك الشعور يمنحه غبطة عارمة وفرح غامر.

ولما سأل الشيخ عن ذلك الشعور، أجابه:

- إنه القرب من الحياة يا ولدي، ويبدو أنه قد آن الأوان لكي تستعدَّ للحج إليها.

ابتسم الغريب برضا، ثم قال:

- إن من غرائب وجودنا أن نسافر بعيدا لكي نحجَّ إلى الحياة، مع أننا قابعون في رحمها، محاطون بها من كل جانب!

أجاب الشيخ:

- إن ما يعايشه الأحياء هو ليس سوى ظلال للحياة، أما الحياة ذاتها، فهي تغيب عمن تحضره؛ ذلك أن الأحياء يولدون، ليجدوا أنفسهم مقذوفين عند مدخل حفرة، ثم يمضون ما تبقى من

عمرهم في إكمال حفرها، إذ يُسمّون ذلك النفق حياة. ولكن ما أن يفرغوا من الحفر وينكشف الستر، حتى يفطنوا بأن نفقهم قد انتهى عند نفس الفوهة التي ابتدأ منها، ليخرجوا منه إلى فضاء الحياة، التي كانوا قد غادروها قبل أن يدخلوا ذلك النفق.

وكذلك فإن حياتنا هي ذلك النفق الدائري، الذي ينتهي في بدايته، أما الحياة بذاتها، فهي الفضاء المطلق عن الدوائر والحُفر. ومن ثم، فإن المسافة الفاصلة ما بين مدخل النفق ومخرجه، هي في منطق الحقيقة لا شيء. أما في منطق الفكر والحواس، فإن تلك المسافة هي طول ذلك النفق. مع أن النفق ليس له وجود حقيقي بذاته، وإنما هو انعكاس ظل، سببه حواسنا وعلته نور الروح. ولو أفلحت الحواس والأفهام في الاستدارة إلى الجهة المعاكسة من الظل، لأدركوا بأن النفق هو ليس سوى خدعة، وبأن لا وجود إلا للنور.

ثم ابتسم الشيخ قائلا بما يشبه الفكاهة:

ـ ولكن دخول النفق إثم، عقوبته الخروج منه؛ فلا يموت ابدا من لم يولد.

قال الغريب بعد أن أطال التحديق في وجه الشيخ:

ـ ولكن أليس مسار ذلك النفق وطوله مرسومين سلفا؟

أجاب الشيخ بابتسامة يملأها الود:

ـ أشتم رائحة جواب في سؤالك.

ـ ليس في جعبة ذلك الجواب سوى السؤال يا معلم.

ـ فهات الجواب إذن يا غريب.

ـ أؤمن أيها المعلم بأن الأعمال التي ننجزها على مسرح الحياة، هي أشبه بلوحة ترسمها أيدينا، مع أننا نحن أنفسنا مجرَّد لوحات كانت قد رسمتها أياد أخرى. وهكذا فنحن نَرْسِمُ بنفس الطريقة التي رُسِمْنا بها. أما ما نسميه عاملا ذاتيا، فهو ليس سوى ما اكتسبه آباؤنا وأجدادنا وراكموه فينا من تجاربهم، التي صارت كامنة فيما وراء أفعالنا؛ أي ما رسموه فينا من مُورِّثات، كانت قد رسمتها تجاربهم وتجارب أسلافهم. فما نظنه هامشا ذاتيا، هو ليس سوى امتداد للموضوعي المكتسب. وهكذا، فإن كل ما نرسمه هو مرسوم سلفا، وبالتالي فنحن نخضع لحتمية قوامها سلسلة سببية لا متناهية، على الرغم من اعتقادنا بأننا نرسم بمشيئتنا الحرَّة. فتلك المشيئة لو وُجدت، لكان لنا الخيار في أن نختار الزمان والمكان والظروف المسبقة لطبيعة الأرض التي سنحفر فيها ذلك النفق الذي نسميه حياة، ولكان لنا الخيار أيضا في أن نبقى فيه قدر ما نشاء. وكذلك، فإن الأمر نفسه ينطبق على تداعيات أحداث الكون، المرسومة تبعا لتناغم قوانينه. وبما أن اللّه كامن في جميع الأشياء، فهو أيضا قانونها الذي يقهر الفوضى، من خلال سلسلة سببية صارمة في نظامها. وبما أن إعجازه يكمن في النظام، فإن التداعيات المُحكمة لذلك النظام، هي قدر الكون المرسوم سلفا والذي لا يتغير.

قال الشيخ:

ـ بُورك فهمك يا غريب. ولكن حذار من محاباة الظلال، لأن في ذلك إجحافا بحق فسحة النور.

يا ولدي، إن كل سعي يقوم به الأحياء، هو أشبه بسهم، راميه هو الإرادة الحرَّة، ونصله هو الحتمية، ومرماه هو القدر. ومن ثم، فإن الجبرية هي البعد القسري الذي يفصل الرامي عما ينشده من رحابة المرمى. مع أن المرمى هو أقرب إلى الرامي من النصل، لمن كان مرماه هو الحقيقة.

إن الحتمية يا غريب تخضع ظاهر الأشياء، ولكن لا يخضع لها باطن الكائنات إلا بمقدار؛ فحيثما توجد الروح، يكون هناك إرادة. وما الحتمية إلا قدر الطبيعة المسيَّرة تبعا لقانون إلهي لا يتغيَّر. أما الكائنات، فقدرها متغيّر تبعا لحدود إرادتها؛ فلا إرادة للطبيعة إلا الله، أما نحن، فلا يغير إرادة الله فينا، سوى تعزيز جوهر من الله ذاته كامن في أعماقنا؛ ذلك أن الله وحده هو الذي يمسك بزمام القدر، ولكن الروح التي تسكننا هي فيض من الله. وكلما قمنا بتفعيل ذلك الجانب الإلهي فينا، من خلال السعي نحو تلك الروح وجعلها غايتنا ومرمانا، كلما ازددنا قربا من إرادة الله، وبالتالي ازددنا قربا من الإمساك بزمام أمور قدرنا بأيدينا.

- إذن فنحن أحرار في أن نكون عبيدا أو أحرارا، تبعا لسعينا إلى القرب منه.

- هذا صواب يا ولدي. لكن ذلك يبقى ضمن نسبية قيود وجودنا، وليس بالمطلق.

- هلّا حرَّرتَ قيود فهمي أكثر أيها المعلم؟

صمت الشيخ لبرهة، ثم ما لبث أن أمسك بعود ورسم على أديم التراب دائرتين متقاطعتين، ثم قال:

ـ إن وجودنا هو أشبه بلقاء دائرتين متقاطعتين، ثالثهما هو الجسد؛ وهما دائرة من نور، وهي دائرة الروح، ودائرة من ظل، وهي دائرة النفس. وكلما ازدادت فسحة التقاطع بين الدائرتين، كلما طغت دائرة النور على دائرة الظل وأنقصت من مساحتها. وبذلك يكون الإلهي قد طغى على البشري في داخلنا، فيصبح الإنسان أقرب إلى التحكّم بقدره، لقربه من الإلهي فيه. وذلك يحصل عندما يتعزز الإدراك والوضوح، فتبرز الروح نتيجة لسكون النفس. وهذا ما نعايشه عند ممارسة طقوس الفرح مثلاً. بما في ذلك التأمل الروحي، أو الرياضات الروحية بأنواعها، أو أي جهد روحي أصيل يُطهّر الإدراك.

ومن الدهشة، بأن الثقة بقضاء الله والتسليم لقدره، ذلك التسليم الذي يمنحنا السكينة لا الاستكانة، يدفع بالنور لأن يهيمن في داخلنا على الظل، فنصبح أقرب إلى التحكم بزمام قدرنا بأنفسنا، مع أننا كنا قد أسلمنا زمام ذلك القدر إلى الله. فعزِّز سلطان دائرة النور في داخلك ما استطعت، ثم اسلِم زمام ما تبقى من دائرة الظل إلى الله.

ولكن تذكر يا غريب بأن فرديتنا هي ظل، ولذلك لا يستطيع الإنسان أن يسيطر على قدره بالمطلق. لأنه لو تطابقت الدائرتان لكانت الاستنارة، حيث تزول دائرة الظل المتمثلة بالنفس. ولكن ذلك يعني غياب الإنسان عن حاله وعن أمنياته، حيث لا إرادة ولا مُريد.

ـ ولكن ماذا لو انفصلت هاتان الدائرتان، فهل ذلك يعني أن نفقد السيطرة على قدرنا بالمطلق؟

ـ لا تنفصل الدائرتان ما دام فينا أنفاس يا غريب، لأن انفصالهما يعني الموت الذي يتبعه فناء الجسد. ولذلك، إذا كان ثمة كائن يحتضر، تكون دائرة الظل لديه أقرب إلى الكمال، قبل أن تنفصل عن دائرة النور وتفنى. بينما تكون دائرة الظل تلك، أشبه بهلال صغير قد غمر النور كل ما عداه من الدائرة، لدى من ترقّوا إلى المراتب العليا من الإدراك النقي.

فالنفس التي تكون أصلا في حالة كُمون، تولّد من رحم لقاء الروح بالجسد، لتصبح هي نشوة العناق ما بينهما. وديمومة ذلك العناق مشروط بوجود تلك النفس الغاوية. فإذا زالت النفس، غادرت الروحُ الجسدَ. ولكن الأحجية، أن النفس التي هي صلة وصل ما بين الإنسان وروحه، هي حجاب ما بينهما في آن؛ فالوصل هو الحجاب.

وهكذا فإن النفس هي المسافة التي تفصل الإنسان عن إدراك روحه، مع أن الإنسان ملتحم من خلالها مع روحه، وخامة روحه من خامة ذات اللّه.

ومن ثم، فإن الطريق إلى اللّه منتفي المسافة، مطلق البعد. فإذا أطلقت المسافة من وهم إثباتها، انتفى ذلك البعد.

قال الغريب:

ـ هلّا أفضت علي بالمزيد من درايتك أيها المعلم؟

أجاب الشيخ:

ـ حسنا يا غريب، فلنطل على المعنى بإزاحة الستار عن جزء منه.

إن النظر هو نشوة لقاء العين بنور الروح. ولكن إذا بليت العين وزال النظر، انكفأ عنها نور الروح. ومع أن نور الروح يتغلغل في

العين، إلا أنها عاجزة عن رؤيته، لأنها مقيدة برؤية المحسوسات من خلال النظر، أو هي مفطورة لذلك.

فالنظر الذي يغوي نور الروح لكي يبقى على وصال مع العين، هو نفسه المسافة التي تفصل العين عن رؤية ذلك النور، الذي هو علة النظر.

وهكذا، فمع أن المسافة منتفية ما بين العين ونور الروح الذي يتغلغل فيها، إلا أن العين لا يمكنها مطلقا رؤية نور الروح من خلال برزخ النظر، ولا حتى بدونه، لأنه إذا زال النظر، انكفأ عن العين نور الروح. أما إذا أحكم المرء التأمل في باطنه، وكفَّ عن الفكير، بصمت لا يشوبه كفّا، لاستطاع أن يرى نور الروح، بدون عين أو نظر.

كان الغريب يُحدِّق في الشيخ ساكن الطرف. فأتبع الشيخ محاولا إيصال فحوى فكرته إلى الغريب قائلا:

- فلنجرِّد المعنى إذن من صرامة حدوده، لكي نتمكن من النفوذ إلى باطنه، واصغ إلى تلك الحكاية يا غريب:

كان ثمة شجرة لها جذور ضاربة في أعماق الأرض، تمدّها بالحياة. ولكن تلك الشجرة لم تكن تؤمن بالباطن، وكانت تنكر بأن لها جذورا أصلا، لأنها لا تستطيع رؤية تلك الجذور. ولما أرادت أن ترى جذورها بعين اليقين، كان لا بدَّ من استئصالها من التراب الذي يحجب عنها تلك الجذور، ولكن ذلك كان يعني موتها؛ لأن التراب الذي يحجب عن الشجرة رؤية أسباب الحياة المتمثلة بجذورها، هو نفسه الوسيلة التي تصلها بأسباب الحياة.

وبذلك فإن التراب هو مسافة منتفية الوجود، ما بين الشجرة وجذورها. ولكنه بالمقابل، بُعد مطلق، يبعد الشجرة عن إدراك تلك الجذور، لأنه إذا زال التراب، ماتت الشجرة. وبالتالي فهي لن تستطيع رؤية جذورها على أية حال. ولكن الجذور التي انعتقت من كثافة التراب، هي التي سترى النور بحواس الباطن لأول مرة. وذلك ما لا يمكن حدوثه إلا بالاستنارة أو الموت.

قال الغريب:

- حسنا أيها المعلم. إذن فنحن لن نكون أحرارا أبدا، ومهما فعلنا فسيبقى ثمة هامش خارج عن إرادتنا، يتحكم بمصائرنا ويمسك بزمام أمورنا من حيث لا نريد.

- أيها الغريب، ثمة إرادة كليّة شاملة، قوامها النظام لا العماء، وهي تسيّر الوجود من أجل ضرورة محددة، غايتها الخير والتناغم للكل.

ثم عليك أن تعي، بأن كل ما كان هو ما وجب أن يكون، وأن كل ما سيكون هو ما يجب أن يكون. أما ما هو كائن هنا والآن، فلا وجوب لأن يكون إلا تبعا لمقدار إدراكنا، الذي يتقاطع مع إدراك ذات الكون لنا. فاعتصم بالآن لكي يطمئن أمسك ويستبشر غدك، ولا تقلق على الآتي كي لا تخسر الحاضر، ولا تنشغل بما قد ضاع كي لا تضيع ما سيأتي.

إن الفرح كامن فينا وفيما حولنا، وينتظر منا أن نثق بقدومه لكي يتجلَّى؛ ذلك أن التشاؤم هو خضوع لأمر واقع لم يقع، ولكن الخضوع لذلك الأمر يُمَهّد لوقوعه. أما التفاؤل فهو

شراع، وعلى الرغم من أنه لا يستطيع تغيير وجهة الريح أو إيقاع الموج، إلا أنه قادر على تغيير مسار المركب.

ثم دنا الشيخ من الغريب وقال له بصوت خافت، كمن يبوح بسر:

- لكم صارعت التفاؤل، فصرعني وكانت له الغلبة؛ إن طقوس الفرح يا غريب تغيّر في طبيعة دمنا، وتفعمه بالبشر والانشراح والحبور، حتى ينبلج الفرح من النفس انبلاجا. ولا حاجة لنا وقتذاك لاستحضار التفاؤل بالتفكير به، لأنه سيحضر من تلقاء نفسه، ليحصّن سريرتنا من أي حزن أو خضوع.

فالجأ إلى الصمت يا غريب، وابسط شراعك في فضاء الآن، واطلقه ليراقص الريح لا ليعاندها. فهي تهب من أجل الغاية المثلى.

***

وصايا الحج

احذر
فالطريق بالنسبة للحكيم مثله مثل حد السكين
شائك، من الصعب تخطيه أو الدوس عليه
الذات هادئة
بدون صوت، بدون شكل، بدون مذاق، بدون رائحة
لا يمكن الإمساك بها
أبدية لا تتغير
من يدركها يتحرر من الموت

الأوبانيشاد

عند الهزيع الأول من الليل، حيث كان القمر يكاد يطلُّ بكامل شطره المستنير على الكائنات. كان الغريب والشيخ يتناجيان تحت الدوحة، مع هبوب أنفاس نسمات عليلة، والتلميذ يجلس منصتا إلى ما يقوله المعلم:

- إن ثمارك قد قاربت على النضج يا غريب، ولا قاطف لبعدك عنها سواك. لقد آن أوان الحج، وقد أعددت لك جوادا يليق برحلتك. فكن متأهبا لترصد الحياة بذاتها لا بمظاهرها، لكي تستطيع النفاذ إلى ذات الكون.

ثم احذر أن تشاغل خطاك المسالك والدروب، وثِق بالطريق. فإذا ضللته، فليكن الشرق مبتغاك ووجهتك. وازرع

بذور الصمت على طول الطريق، ولسوف تنمو الزنابق والرياحين ما بين خطواتك والطريق، كلما أشبعته خطى. ثم عليك أن تكون في سعيك حُرّا حتى منه، ولا تؤمن به، فهو غير موجود، ولا يساورك شك في وجوده، لأنه علة الوجود. فلن يجدي في سعيك لا شك ولا إيمان، لأن من يتفكر به يبتعد عنه. وما عليك سوى أن تؤمن بالطريق فحسب، وأن تشغل خطواتك بتضاريسه، لا بغاية الوصول، كي لا تتعثر. فعندما يغدو الطريق هو الهدف، يصبح من الأسهل بلوغ الهدف القابع في نهاية الطريق. وتذكَّر بأنك كلما تحررت من غايتك، كلما اقتربت إليها أكثر.

وكذلك، عليك أن تدرك يا غريب، بأن سالك طريق الروح لن يبلغ المنتهى، ما لم ينعتق من أسر لذة الحواس. وإلا فإنه سيكون أشبه بمن يجمع الماء في وعاء مثقوب.

إن الشهوة هي قفص الروح يا ولدي، ولكي تخمد النهم والشراهة فيك، عليك أن تتعفف عن أصناف من الطعام والشراب والسلوك والتفكير، حتى تجتث شهوتك من جذورها وتظفر بخلاصك، فتصبح حرّا مثل نسر طليق في الفضاء.

ذلك أن الغرائز هي اللاعب الخفي الذي يحرِّك الدمى من وراء الستار، أما تلك الغريزة التي أوقعت الروح في أسر الجسد، فهي التي تحرِّك ذلك اللاعب الخفي. إنها شهوة رابضة في مياهنا الجوفية، وتتسلُّ خلسة إلى كؤوسنا من حيث لا ندري، مُحتوية لضدها في ذاتها؛ فقد تأتينا كشيطان متنكّر على هيئة ملاك أبيض، أو كذئب يخفي شدقيه بقناع طفل بريء.

فاحذر النساء يا غريب، ولا تصلهن، وتجنب لقائهن ومجالستهن ورائحتهن وعبق أنفاسهن، واحذر أن تراود أطيافهن خيالك؛ ذلك أن معظم الحماقات التي نرتكبها في حياتنا، هي ليست سوى ثمار لبذور كنا قد نثرناها في خيالنا لمجرد اللهو والتسلية، من دون أن ندري أن البذور سوف تنمو في الظل، وعندما يحين الأوان، فإنها ستذيقنا حصاد ما زرعنا.

وكذلك فإن إشعال عود ثقاب بريء في خيالك في أوقات الضجر، قد يكون السبب لإلهاب فضائك كله بالشهوة والنهم. لأن مجرَّد سماحك لفكرة ما، بأن تتسلل إلى داخلك، هو أشبه بإحداث ثقب صغير في قاربك. ولكن اليمَّ لا يشفع للقارب براءة ذلك الثقب الصغير، لأن الثقب سوف يغوي الغرق لكي يتسلل إلى القارب.

فليكن السبب هو قبلتك، لكي تأخذ مبتغاك من الناصية، ومن أحاط بالسبب لا بد أن تطاوعه المسبَبَات؛ ذلك أنه من العبث أن تحاول خنق الينابيع، ما دام هناك ثلج على قمم الجبال. إذ عليك أن تذهب بعيدا لكي تقترب من غايتك، وكلما ابتعدت، كلما اقتربت أكثر.

***

ثم كان فجر، وعند مفترق العتمة والضياء، كان الغريب يعتلي صهوة حصانه متأهبا للحج.

تقدم الشيخ نحوه وداعب ناصية الحصان قائلا:

ـ إن من تريد وصالها تطلب مهرا، ومهرها إبحار نحو المطلق. فلتكن خطواتك كلها فتح، وليكن منتهى دروبك كلها إلى الماء.

ثم ربت الشيخ على ردف الحصان قائلا:

ـ انطلق أيها الغريب.

وما أن انطلق الغريب على حصانه مبتعدا، حتى صاح به الشيخ قائلا:

ـ لا تنسَ ما أوصيتك به يا غريب، واحذر النساء.

ثم لوَّحا لبعضهما من بعيد، وانطلق الحصان يرسم بسنابكه معالم الطريق.

***

الحجُّ إلى السراب

القناعات الراسخة، أشدُّ خطورة على الحقيقة من الأكاذيب.

فريدريك نيتشه

على طريق الحج، مرَّ الغريب بسابلة عليها آثار أقدام ووقع خطى كثيرة، فسلكها ليستطلع مؤداها. ولكن سرعان ما مرَّت به قافلة من البشر يتقدمها بعير يحمل هودجا، وما أن اقتربوا من الغريب، حتى أحاطوا به بما يشبه الحلقة وأكملوا سيرهم. فجاراهم الغريب في السير مرغما، وقد لاحت على وجهه أمارات الضيق والقلق. ثم ما لبث أن اقترب منه أحدهم وقال له ببشاشة:

ـ هدّئ من روعك يا صاحبي، فلقد اقتربنا كثيرا من وجهتنا.

استبشر الغريب بما قاله الرجل، ولكنه سرعان ما عاد وسأله:

ـ ولكن ما هي وجهتنا؟

أجاب الرجل:

ـ وجهتنا هي التي فيها كل ما نرغب ونشتهي.

فسأل الغريب ثانية:

ـ ولكن ما هو منتهى دربنا، وإلى أين نحن سائرون؟

نظر الرجل إلى الغريب بارتياب، ثم قال:

ـ وهل من منتهى لطريق المؤمنين سوى الخلاص!

فقال الغريب:

ـ ولكن كيف يكون هناك خلاص مع الرغبة والشهوة؟!

أجاب الرجل مشيرا إلى الهودج:

ـ عليك أن تسأل كبير القوم، فهو ولي حالنا ومدّبر أمورنا، وهو وحده من يعلم بغاية ومشيئة البعير. أما نحن فما علينا سوى التسليم والطاعة.

استحثّ الغريب خطاه إلى أن بلغ الهودج، وهناك وجد رجلا بدينا، متدلي البطن، متكور الجسد، كان منهمكا بما حوله مما لذَّ وطاب من المأكل والمشرب.

فسأله الغريب:

ـ ما هي وجهتنا أيها الكبير؟

فأجابه الكبير متجشئا، وعيناه نصف مفتوحتين:

ـ اذهب وبشِّر الشعب بقرب النجاة. فلن يمرّ وقت طويل، حتى نبلغ خلاص شهواتنا وفردوس غرائزنا كلها. فطوبا لمن صبر وسعى وثابر على المسير.

ـ و لكن ما هو دليلنا للخلاص أيها الكبير؟

أجاب الكبير سادرا:

ـ إن لبعيري أخفاف مباركة لا تخطئ الطريق، ونحن نستلهم وجهتنا من وقع أخفافه الميمونة.

التفت الغريب، فرأى عبدا مشدودا إلى الهودج بحبل، يستحث البعير بعصاه، وينثر خلفه علفا، فسأله:

ـ لماذا تنثر العلف خلف البعير؟!

أجاب العبد:

ـ لكي يهتدي إلى الطريق.

حدق الغريب في العبد مستهجنا، ثم قال:

ـ ولكنك تنثر العلف خلف البعير. فهل أنت تقدّم العلف للبعير أم للشعب؟ ثم كيف للعلف أن يكون هداية؟!

أجاب العبد بتهكم:

ـ غالبا ما يلقي المرء بالحَسَن والقبيح وراء ظهره، ولكن عندما تكتمل الدائرة، سوف يجد كل ما ألقاه خلفه، ماثلا أمامه.

ثم ابتلع ريقه والتفت حوله قائلا بصوت خافت:

ـ منذ أن بدأنا المسير ونحن نسير في نفس الطريق. فكبير القوم قد أوثقني إلى الهودج بحبل، لكي أستحث البعير وأنثر له العلف خلفه. والبعير ما يزال يدور بنا حول بؤرة السراب تلك، في طريق دائري طويل ومتعرج، متبعا آثار علفه التي نثرتها له في الدورة السابقة. وبذلك لا يتوه البعير عند مفترقات الطريق وتشعباته. أما الشعب، فهو يبارك البعير ومن عليه، لأن البعير يستهدي وحده طريق النجاة المتشعب الذي ألفوه. والكبير ما يزال يُمنّيهم بقرب خلاصهم عند بلوغ نهاية الطريق، الذي فيه كل ما يرغبون ويشتهون. وبذلك يبقى حاكما للشعب، ويحتفظ لنفسه بالهودج وخيراته... ولا نهاية للطريق.

عاد الغريب واندسَّ بين جموع الشعب؛ فوشى بالكبير وبعيره، وأخبرهم بأن طريقهم لا يؤدي إلى شيء، وحثَّهم على أن يبحث كل منهم عن طريق الخلاص بنفسه. لكن الشعب هاج وثارت ثائرته، فانقضّوا على الغريب، واقتادوه إلى كبيرهم لينظر في أمره. ثم تعالت الصيحات مطالبة بالعقاب والويل والثبور، إذا لم يثب الغريب إلى رشده ويتوب عن غيه.

تذكر الغريب ما قاله الشيخ عن تفاوت أفهام البشر، وعن أفهام العامة التي لا تحتمل دائما القرب من الحقيقة. ثم لم يجد بدا من الحيلة والمداهنة؛ فانحنى أمام البعير قائلا:

ـ يا بعير، يا ذا العلو والسمو. يا من حكمته تفوق مدى أفهامنا وتسمو على محدودية إدراكنا. يا من خطاه لا تخطئ الطريق الحق، ها قد جئتك نادما تائبا، أتلمس طريق الخلاص خلف أخفافك المباركة. فاعفو عني يا ملاذ التائهين.

رغا البعير وهزَّ بذيله دلالة على الرضا. فخشع الشعب وهلّلوا، ثم غفروا للغريب وباركوا توبته وقبلوه واحدا منهم. وما أن أطبق الليل وهجع القوم، حتى امتطى الغريب حصانه وفرَّ هاربا.

***

الأحدب

في حال أننا عجزنا عن تغيير واقعنا،
دعنا نغيّر عيوننا التي ننظر بها إلى ذلك الواقع.

نيكوس كازانتزاكيس

قصد الغريب البقعة التي كان يدور حولها القوم ليستجلي ما عليها، وعلى الجانب الآخر من مجاز المشهد، رأى رجلا أحدبا يحمل على ظهره حصانا يحتضر. وكانت رقبة الأحدب تتلوى، وكأنما قد لسعه ثعبان. وكان رأسه يتدلى إلى أن يكاد يلامس الأرض، وهو ينظر من بين ساقيه، فيرى الطريق الذي خلفه، ويسير للوراء وكأنه أماما.

فسأله الغريب بدهشة:

ـ ما الذي قلب الأدوار بينك وبين الحصان أيها الأحدب؟

أجاب الأحدب بصوت متحشرج:

ـ لقد حملني هذا الحصان طويلا يا غريب، وكانت صهوته علو قامتي ورفعة شأني، عندما كان فتيّا يرمح ما بين السهل والجبل. فكيف لي أن أجحد فضله أو أن أتخلى عنه، وأنا الذي كنت على سرجه سيد الناس!

ـ ولكنك أنت به الآن آخر الناس. فإما أن تصلح حاله ليحملك، أو أن تلقيه عن كاهلك وتنظر للأمام مثل باقي الخلق، وإلا فستهلكان معا.

قال الأحدب:

ـ كيف لنا أن نبصر خطى السلف لنسير عليها إذا نظرنا للأمام؟ ثم أن لكل طريق نهاية، وفي نهاية الطريق سيحملني هذا الحصان ثانية، ولن يكون لي خلاص سواه. أفلا تؤمن بما بعد الطريق يا غريب؟

ـ بلى أيها الأحدب، ولكن لي طريقا مغايرا ووجهة أخرى. وطريقي غني بما بعده، لأن ما بعده مستترا فيه.

ـ اسلك طريقنا يا غريب، فلا خلاص لك سواه.

راح الغريب يتقصى معالم الطريق مدفوعا بالفضول، ولكنه سرعان ما سمع ضجة وجلبة. وعندما اقترب من مصدر الصوت، رأى جمعا من الناس في ساحة، كان فيها العقل مكبلا، والقوم يقودونه نحو الصليب وهم يهتفون:

"الموت للعقل"

بينما كان العقل يصرخ ويستغيث قائلا:

"الرحمة أيتها الكائنات العاقلة"

فزع الغريب مما رأى، وعاد مسرعا إلى الأحدب ليخبره عن حال قومه، فوجده والناس حوله يسرقون زاده ويشتمون حصانه، وهم يشبعونهما ضربا وركلا، وهو يتمايل تحت حصانه، ويشتم ويركل كل من يمرّ في دربه.

ثمة رجل كان يقف على الجانب الآخر من الطريق، ينظر إلى الأحدب، وقد بدت عليه الحسرة. فتوجه إليه الغريب وسأله:

ـ ألا نفعل شيئا لمساعدة هذا المسكين؟

أجاب الرجل بأسى:

- ليس هناك من وسيلة لمساعدته، سوى مُعالجة الحصان أو تخليص صاحبه منه. ولكن لا سبيل لنا إلى ذلك، لأنه في كلا الحالتين سيركلنا إن اقتربنا من حصانه وسيتمسك به أكثر.

- و لكن ما الذي أوصله إلى ما هو فيه؟

أجاب الرجل:

- لقد بات الأخطبوط يتحكم بكل شيء في هذه القرية.

ثم أطلق تنهيدة طويلة وأتبع:

- إن الأحدب كان يسود بحصانه على القرية وأهلها، وكان له على صهوته جبين يعانق الأفق وقامة تنتصب كحسام. وكان له بستان، فيه من الخيرات ما لم يمتلك أحد. ثم توالت الأيام واعتلَّ الحصان وخارت قواه، وهكذا فقد الأحدب سلطانه على بستانه وضاقت حيلته، فبدأ أهل القرية يتهافتون عليه لنهب خيراته. وبينما كان منهمكا بدرء الطامعين عنه، كان ثمة أخطبوط مشاكس، له وراء كل فتنة ذراع، وكان كل من في القرية يقذفه على الآخر. فتخلصوا منه بقذفه على هامة الأحدب، فأحكم أذرعه حول رقبته وحبس أنفاسه. ولما عجز الأحدب عن تخليص رقبته من أذرع الأخطبوط، استجار بماضيه ليثأر من مهانة حاضره، فلم يجد من أمجاد ماضيه سوى ذلك الحصان العليل. ولكن قوة الحصان خذلت صاحبه، والعقل لم يسعفه لإيجاد حيلة للثأر. فانقلب قوم الأحدب على قدسية العقل، ثم صار المُقدَّس هو جسد الحصان فحسب، ولم يعد الأحدب يأبه لشيء سواه. فحمله على ظهره وسار به، متعففا عن فحوى الطريق، ناشدا نهايته. مع أنه في الحقيقة يتقهقر للوراء نحو بداية الطريق.

ـ ولكن أليس لهذه القرية حارس ليحميها ولينصر فيها الضعيف على القوي، إذا بغى؟

ـ إن حارس القرية يا غريب، يسكن في غربها. عصاه غليظة، ولكن أخلاقه تذريها رياح مصالحه، وخيوط مصالحه باتت تمسك بها أذرع الأخطبوط. حتى أن الناس صاروا يسيرون كالدمى المتحركة؛ فالأكاذيب أصبحت تملأ القرية، والأخطبوط يُكمّم بسطوته الأفواه ويسوق الناس كالخراف، وهم بين مخدوع وخائف ومتآمر، راضخون لا يحركون ساكنا. مع أن البعض قد بدأوا يتهامسون فيما بينهم وهم يشيرون إلى الأخطبوط، ولا عجب إذا علا الهمس وانتشر بين الناس. وحينها سوف ينقلب السحر على الساحر وعلينا جميعا، وسيكون خراب. فثمة صراع آت من داخل بيوت القرية، قبل أن يكون صراع فيما بينها.

ـ ولكن لماذا لا يترك الأخطبوط الأحدب وشأنه، ويجد لنفسه مكانا آخر أكثر أمنا، فلا ينفيه منه أحد، ولا يتقاذفه من أهل القرية أحد. وبذلك يعيش الجميع في سلام.

أجاب الرجل بغصّة:

ـ إن عدد سكان القرية يزيد واحدا عن مساكنها، وبذلك فإن ثمة ساكنا سوف يبقى مطرودا تائها. فكيف يمكن أن يحلَّ على أرض هذه القرية السلام؟!

أحنى الرجل رأسه بانكسار، ثم أضاف:

ـ كل يريد أن يسود على الآخر ليقصيه ويسحقه، متسلحا بهبة الإنسانية أو زاعما الدفاع عنها. ولكن ما الإنسانية يا غريب؟

فليس هناك إنسان قادر على إيجاد إطار ملائم لتعريف الإنسانية، بحيث يستطيع هو نفسه أن يلتزم به في جميع الظروف. والخشية أنه كلما اقترب المرء من إنسانيته، كلما ازداد شقاء وعزلة.

ثم رفع الرجل رأسه ونظر إلى الغريب قائلا:

- ولكن ما الذي أتى بك إلى هذه البقاع، وما هي وجهتك؟

أجاب الغريب:

- أنا ذاهب للحج إلى الحياة.

قال الرجل وقد استبشرت ملامحه:

- إن طريقك هو طويل إذن. ولكن ما كان عليك أن تمرَّ من هنا.

- نحن جميعا سكان هذه القرية يا صاحبي.

- حسنا، ولكن لنبتعد عن هذا المكان. إن لي معقلا في منعة الجبل، وفيه ركن يليق بمن ينشدون الحقيقة، فقد تجد فيه من الزاد ما يعينك على إكمال رحلتك.

***

التائه

الجهل وطن، والوعي منفى.

إميل سيوران

سحب الغريب حصانه ومضى مع الرجل. ثم علم منه أن اسمه التائه، وأنه قد وجد السلام في البعد عن الناس والتفرغ لمناجاة نفسه والتنقيب في أغوارها، وأنه يأنس لجميع الكائنات إلا البشري منها؛ فلا يخالطهم إلا لقضاء حاجة، من مأكل أو مشرب أو ملبس.

سار الرجلان في طريق جبلي وعر ومتعرج، إلى أن بلغا كهفا عند ذروة الجبل، كان أشبه بوكر طائر قد نحتته يد الأيام بتؤدة وصبر.

بسط التائه لضيفه حصيرا منسوجا من ليف الشجر، واقتعد هو التراب و قد ضم ركبتيه إلى صدره قائلا:

- إن الوحدة هي باب كهفي يا غريب. ولكنه باب لا ينفتح على ضده، لأن وحدتي هي أرحب من فضاء هذا الكهف. فخير للمرء أن يكون بعيدا عن الناس، على أن يكون وحيدا بينهم. أما أمثالك ممن كان مبتغاهم هو الذات، فلا باب للكهف لكي يوصَد أمامهم.

أومأ الغريب برأسه بود، ثم راح يتأمل في مضيفه، الذي كانت هيئته تشي بأيام عسيرة كان قد مرَّ بها. إذ كان ضئيل القامة،

طويل الشعر أشعثه، ذا لحية بيضاء مسترسلة، وخدين غائرين، وعينين صغيرتين يشعُّ منهما الحذر والترقب. لقد كان أشبه بمقاتل جبلي متأهب، ولكن سريرته كانت أكثر حميمية وأنسا مما كان يوحي به مظهره.

كان من الجلي بأن ثمة أناسا كانوا قد تعاقبوا على ذلك الكهف القصي لسنين طويلة، وأعملوا أدواتهم في توسعته وتهيئة أركانه. فتركوا فيه عبقا باقيا، وكأنهم كانوا قد غادروه للتو.

علَّل التائه ذلك، بأن ذروة الجبل كانت في سالف الأيام ملتقى لطرق الحجيج المتشعبة، الذين اعتادوا على السير فرادى. وعلى الرغم من تباين وجهاتهم، فإن مساراتهم كانت غالبا ما تتقاطع هنا. وأن من عرَّجوا بالكهف هم على الأرجح حجاجا، كانوا ينشدون الانفراد بذواتهم، فوجدوا فيه ملاذا لخلوتهم بعيدا عن الناس.

قال الغريب:

- يبدو أنه لا مناص للمرء من أن يبتعد كثيرا لكي يبلغ هذا العلو.

أجاب التائه:

- إن الناس هم الذين أوصلوني إلى هنا؛ فداء الناس دواؤه الوحدة.

- وهل تعافيت منهم ببعدك عنهم؟

- لقد دفنت ما يصلني بهم في تراب هذا الكهف فحسب. وعلى أية حال، فإن الداء هو ما يحدد طبيعة الدواء. والمرء يسير دون أن يدري، بأن خطاه لا تختار إلا الدرب الذي اختارها.

- حدِّثني إذن عن الداء أيها التائه، فإني مثلك مُبتلى.

أطرق التائه، ثم ما لبث أن قام وسار نحو مدخل الكهف، وقال وهو يرنو إلى القرية من بعيد:

- لقد مررت بقوم مجانين، يتكلمون لغة لا أفهمها، وكنت كلما تكلمت، كانوا ينفجرون بالضحك من غرابة لغتي. أقمت بينهم ردحا من الدهر، ولما غادرتهم، كان قد نما حاجز ما بيني وبين لغتي. حاولت أن أقفز فوقه، فتعثرت وسقطت في وحدتي.

- هم أهل القرية إذن.

استدار التائه قائلا:

- إن ما يفعله ذو الأذرع الطويلة وحارس القرية بالأحدب، وكذلك ما يفعله الأحدب وقومه بأنفسهم وبالعقل، فيه من الكفاية للنفور من كل ما هو إنساني.

قال الغريب:

- من العجب أن في القرية من لا يبالون بالأهوال التي تحدث بها، وينعمون بالحياة فيها من دون أن يمسَّهم الشقاء أو القلق، أو يؤول بهم الحال إلى ما آل بنا من شظف المسير بعيدا إلى الأعالي!

أجاب التائه وهو يتفرس في عيني الغريب، وقد ظهر الانفعال على محيَّاه:

- تشقى النسور إذا تساوت مع سكان الحظائر، فيما تستنشقه من هواء. وبما أن هواء هذه الأرض فاسد، فإن كل ذي عقل عليها مآله إلى نوع من الشقاء. فإذا بلغتَ علوا، حذار أن تطأطأ رأسك، وذلك إكراما لما بلغت. فعندما تنحني النفوس الشامخة، ينحني معها شيء من هواء الأعالي.

أما القلق يا غريب، فذلك ما عجز المحيط عن إظهار أسبابه لمن كانوا يفتقدون العمق، حتى انزوى في عزلته وحيدا.

ـ وكيف كان ذلك؟ سأل الغريب.

ـ عاد التائه وجلس بجانب الغريب، ثم قال:

يُحكى أن مستنقعا ضحلا سأل المحيط:

"علامَ كل هذا القلق؟ أفلا تتشبه بي و تهدِّئ من أمواج حالك، لتكون مثلي مطمئنا ساكنا، لا يُعكِّر صفحة مائك موج؟"

أجاب المحيط:

"إن القلق هو سمة كل من له عمق يا صاحبي"

ضحك المستنقع قائلا:

"الأولى بالأشقياء أن يتحلّوا بالإرادة، لكي يغيروا من طباعهم وعاداتهم، بدلا من البحث عن الأعذار لعجزهم وضعفهم"

ثم راح المستنقع يتباهى وهو يستعرض سكون وجمال سطحه، بينما كان المحيط عاجزا عن أن يُري ما في أعماقه من بهاء وغنى، إلا لمن كان لديهم القدرة على الغوص في الأعماق.

صمت التائه لوهلة، ثم أردف وقد تهدَّج صوته:

ـ لقد ضاقت بي الحياة بين الناس يا غريب. فاستيقظتُ ذات ليلة وقد راودني ما يشبه اليقين، بأنني لا أنتمي لشيء مما ينتمي إليه عامة البشر، ثم جافاني الكرى إلى أن بزغ الفجر، فحزمت ما خفَّ من متاعي وسلكت طريق الجبل ناشدا هذا الكهف، الذي اعتدت أن أقصده كلما ضاق بي الحال، إلى أن صار

مسكني. وبتُّ لا ألتقي الناس إلا لقضاء حاجة، أو لصدفة تجمعني بعابري السبيل.

قال الغريب:

ـ يا لها من إنسانية تلك التي ننتمي إليها، ما دام الإنسان ما يزال يشقى بأخيه الإنسان، إلى الحدّ الذي تكون معه الوحدة أحيانا مقدمة لسلام أنفسنا، أو حتى شرطا لازما لخلاصنا في أحيان أخرى. مع أنه من المفترض، بأن في إنسانيتنا من الأصالة ما يكفي لكي نكون أنبل الكائنات، وأكثرها عقلانية وتكاتفا مع بعضنا البعض وتناغما فيما بيننا، عوضا عن التنافر والخصام والنزاع والقتل، الذين لا يزالون سائدين بين الناس. أو تقديس الدواب، الذي ما فتئ ينتهجه البشر، كوسيلة للخلاص. على الرغم من أننا نتمتع جميعا بنعمة العقل، كجوهر فريد يميزنا عن باقي الكائنات!

ـ أيها الغريب، إن الإنسانية أصيلة لدى القلة من البشر، ولكنها ليست أصيلة بذاتها؛ ذلك أن الإنسانية هي حالة مُفتعلة، مُبتكرة، مُكتسَبة، وينقصها الانتماء الحقيقي والهوية الراسخة.

ـ ولكن الإنسان لا يلد إلا إنسانا، وهو يُورِّث لنسله شكله وصفاته أو حتى طباعه وميوله المُسبقة، وهذا هو حال جميع الأنواع. فكيف للإنسانية أن تكون مُكتسَبة وليست موروثة بالفطرة؟

ـ حسنا يا غريب، تخيَّل إذن لو أننا أخذنا مجموعة أطفال من أعراق مختلفة، كانوا قد ولدوا للتو، ووضعناهم في غابة مع قطعان الحيوانات. ثم أوجدنا لهؤلاء الأطفال ظروفا افتراضية،

تمكّنهم من البقاء والنمو في الغابة وسط الحيوانات، من دون أن تتاح لهم أي فرصة للاتصال بالبشر. فإن هؤلاء الأطفال سوف يكتسبون من الحيوانات الكثير من سلوكهم، دون أن يكون لهم أي مسلك إنساني حقيقي، يتشابه مع سلوك البشر. وعلى الرغم من أنه سيكون لديهم حنين كامن في أعماقهم لأصلهم البشري، ولنمط الحياة التي كان ينتهجها آباؤهم. وعلى الرغم من أنهم سوف يمتازون كذلك عن باقي الحيوانات، بأن يكون لديهم ميل داخلي واستعداد مسبق، لأن يكونوا أكثر ذكاء وإبداعا وحنكة. إلا أنهم لن يستطيعوا الاستفادة من تلك الامتيازات في الشيء الكثير، لأنهم قد يُمضون حياتهم كلها، ثم يموتون، من دون أن تسعفهم نعمة العقل لأن يتمكنوا من ابتكار طريقة لبناء كوخ بدائي من الأغصان، أو إيجاد وسيلة لإيقاد النار. والأهم من ذلك، أنهم لن يستطيعوا معرفة أي شيء عن الأخلاق والضمير أو الرأفة والرحمة، أو العدالة والمساواة، أو أي معايير للسلوك تتعلق بالخير والشر أو الفضيلة والرذيلة.

فالإنسانية يا غريب هي ليست سوى مفاهيم وأنماط من التفكير والسلوك، كنا قد اكتسبناها من الجماعة التي نعيش في وسطها، وتلك الجماعة كانت بدورها قد اكتسبتها جيل بعد جيل، عبر تراكم غير محدود من الخبرات والتجارب لأجيال طويلة. وكان كل جيل يطوّر أو يعدِّل أو يضيف على أنماط التفكير والسلوك تلك، تبعا لتطور مفاهيمه، المستمدة أصلا من السلف. أي أن الإنسانية هي سيرورة لا تعرف الانقطاع أو التوقف، وهي تكتسب دفقها من اتصال سلسلة يُسلِمها السلف للخلف. ولو انقطعت حلقة واحدة من تلك

السلسلة، لعاد البشر إلى أصولهم الحيوانية البحتة؛ فالإنسانية إذن، هي هبة مكتسبة، يتم تلقينها لكل فرد لكي يتمكن من العيش ضمن الجماعة والتناغم مع أعرافها وعاداتها.

أما الأصالة؛ فإن من بين ما يُميّز الإنسان عن باقي الحيوانات، هو أنه أكثرهم قابلية للترويض والتدجين لكي يُمَثل دوره في العلن، على مسرح قد تم التآمر فيه بين الممثلين، على زيف النص وعبثية الأدوار. ولكنهم مع ذلك يستمرون في التمثيل، لأن الخشبة التي يقفون عليها هي مسرح الإنسانية، الذي لا بديل لهم عنه كانتماء.

وفي الحقيقة أن قابليتنا للترويض هي التي منحتنا المرونة، للقبول طواعية بارتداء لجام لغرائزنا، تمسك بزمامه يد الجماعة التي ننتمي إليها. وذلك اللجام هو أشبه بقناع كانت قد نسجته تجارب الكائنات العاقلة عبر العصور، ثم ارتدته لتتباهى به على باقي الكائنات. ولكنه مجرَّد قناع هش، مُضاف إلينا، وليس جزءا منا، ولا هو أصيل فينا. فلكم مررت بقرود وخنازير وأفاعٍ، كانوا يتنكرون على هيئة بشر. وعلى أية حال، فإن ذلك القناع لا يستر من عري ولا يغير من جوهر، وقد يسقط ويتهشم عند أول اختبار نواجه فيه جموح غرائزنا واحتياجاتنا.

فالسلوك الإنساني المنضبط، غالبا ما يكون باعثه هو السعي نحو الأمان، من خلال تعزيز الانتماء للجماعة، بالتملق لها والتزلف لكسب رضاها وإعجابها، خشية من نبذها أو رهبة من قصاصها.

مع أن تلك الجماعة نفسها، غالبا ما تمتلك معيارا أخلاقيا مزدوجا تجاه الآخر. فحارس القرية مثلا، يسلك سلوك الإنسان النبيل المتحضر تجاه أهل بيته. ولكنه بالمقابل ذئب؛ غريزته لا تخطئ الضعيف، إذا كان غريبا وبهِ لحم.

وهكذا فإن اللعبة تسير، ما دامت كل جماعة توفِّر متنفسا معقولا لغرائز أفرادها، حتى ولو كان مشروطا. أما لو وجد البشر أنفسهم في مواجهة وجودية أمام جحيم غرائزهم، في غياب مطلق لسطوة الجماعة وقوانينها، أو في مكان بدائي افتراضي لا يعرفهم فيه أحد، وليس فيه أي رادع أو رقيب أو عواقب لاحقة لأفعالهم. فإن أكثر البشر تحضرا، قد يتحولون إلى حيوانات بريّة متوحشة، وقد يسرقون ويقتلون ويغتصبون، تبعا لإلحاح غرائزهم، وتبعا لمدى قوتهم وقدرتهم على استغلال الآخر لسلبه ما يحتاجونه منه. وهذا في الحقيقة ما يحصل في القرية، ولو بشكل مُنَمَّق، تموّهه الأكاذيب والشائعات أو الأعذار والمسوغات.

ومن المفارقة يا غريب، أن أكثر البشر إرهافا للحس وتعاطفا مع الكائنات المُستضعفة، وأكثرهم تطرفا للرأفة بالحيوانات ولحمايتها من القتل، لو وجدوا أنفسهم مع أطفالهم الجياع في غابة نائية، ولم يكن لديهم أي وسيلة للاغتذاء سوى أكل لحم الحيوانات، وكان هناك نار موقدة مُعدَّة للشواء. فإنهم سيتصرفون بوحشية لن تختلف كثيرا عن وحشية أي تمساح أو ذئب، للفتك بفريستهم، تبعا لما هو متاح لهم من وسائل القتل، وذلك لتأمين القوت لأطفالهم ولأنفسهم. وفي الحقيقة، أنه ليس في ذلك أي غرابة، فجميع الكائنات تبحث عن أسباب

بقائها من خلال إشباع غرائزها. ومن يدري، فقد يكون التمساح أو الذئب متعاطفين أيضا مع فرائسهما، ولكنهما مُجبران على أكلها، لانتفاء البديل للاغتذاء. ولكن الغرابة تكمن في أن غرائز البشر فيها من التجذّر والقوة، ما يكفي لتهشيم كل ما اكتسبته إنسانيتهم من قيم ومعتقدات. مع أن هناك غرائز هي أكثر خطورة من مجرَّد غريزة الاغتذاء.

وكذلك يبقى ثمة سؤال، حول ماهية الهوَّة التي تفصل ما بين الإنسان والحيوان. وتلك الهوَّة بلا شك، هي منظومة الجماعة المكتسبَة، وليس أصالة الإنسان الفرد؛ فإذا تم عزل الفرد عن تلك المنظومة، التي هي له بمثابة القيد والإطلاق، فإنه سيكون أقرب إلى الحيوانات من قربه إلى البشر.

أما عن الجوهر الفريد، فإن جوهر الشيء هو ضرورة لوجوده؛ أي أن وجود الشيء تابع لجوهره، فلا يمكن للجوهر أن يكون لاحقا على بدء الوجود، ولا سابقا لنهايته، كما لا يمكن تجزئته. وبذلك فإن الجوهر هو رديف للوجود وليس مضافا إليه، إذ أنه مثل الروح للكائن الحي، لا يمكن للموجود أن يكتسبه بعد أن يوجَد، ولا أن يفقده مع الاستمرار في الوجود.

ولكن ما يمتاز به الإنسان على الحيوان، هو أمرا قابلا للاكتساب، وقابلا كذلك للزوال، ولو بشكل جزئي؛ إذ يمكن للإنسان اكتسابه وفقدانه، كليا أو جزئيا، من دون أن يؤثر ذلك على وجوده. إذن، فليس هنالك جوهر فريد يُميّز الإنسان عن باقي الكائنات، وإنما هنالك فرق ما بينه وبينهم بالدرجة فحسب، وليس بالجوهر. أو أنه فرق بالكم وليس بالكيف.

ذلك أن الحيوان يشترك مع الإنسان في الغرائز وفي الكثير من الصفات الجسدية والنفسية ووظائف الأعضاء. وكذلك فإن الحيوان عموما، شأنه شأن الإنسان، له حواس وإحساس. وهو، ولو بشكل متفاوت، يفكّر ويفرح ويحزن ويحب ويكره ويغار، ويشعر باللذة والألم والرضى والغضب والطمأنينة والقلق، ويستطيع أن يتعاطف مع الآخر وأن يواسيه. وكذلك لديه القدرة على المراوغة والاحتيال ليحصل على ما يريد، وعلى الخداع والتضليل إذا تعرض للخطر، وعلى التعلم من تجاربه، والتواصل ذي المعنى مع أبناء نوعه، وعلى العمل المشترك معهم. كما أن لديه إدراك وذاكرة وخيال وأحلام ليلية ومخاوف كامنة.

ولكن إذا كانت القردة أو الكلاب أعلى رتبة من الزواحف، بتميزهم عنها بفارق كبير في الذكاء، فذلك لا يبرّر للقردة أو للكلاب بأن يزعموا، أن لهم جوهرا فريدا يميزهم عن الزواحف.

حتى أن ما يُميِّز الإنسان عن الحيوان، هو امتياز للحيوان في بعض الجوانب، وليس العكس دائما؛ فعلى الرغم من أن الإنسان مُتميّز عن الحيوان بخصوصية جسده وبمستوى ذكائه وبقدرته على مراكمة ونقل معارفه النابعة من تجاربه، لاستعمالها كقاعدة للترقي إلى درجات أعلى من المعرفة. فإن من الأسباب الأساسية لتميّز الإنسان كذلك، هو أنه منذ أن كان، وهو أكثر الكائنات هشاشة، وأقلها تناغما مع محيطه، بسبب حرمانه مما تمتاز به أجساد الحيوانات، من أدوات للهجوم أو للدفاع عن نفسها، ومن وسائل تقيها من قسوة الطبيعة وتقلبات

مناخها. ولما وجد الإنسان نفسه أمام خطر وجودي يهدد بقاءه، كان مجبرا على التفكير الدؤوب وعلى الخلق والإبداع، لكي يحمي نفسه ويحقق لها شروط التلاؤم مع الطبيعة. ولو كان للإنسان ريش أو فرو يقيانه من البرد، ومنقار جارح أو مخالب وقرون وأنياب يمكنونه من اصطياد ما يقتات عليه، ومن الدفاع عن نفسه، لكان قد عاش في تناغم مع الطبيعة مثل باقي الكائنات، ولما أشقى نفسه بالتفكير والبحث لتطويع الأشياء من حوله، ولابتكار الوسائل التي تضمن له الاستمرارية والبقاء.

لقد حقق الإنسان مراده على أكمل وجه، ولكنه لا يزال ناقصا عن باقي الكائنات، بافتقاده للهوية الأصيلة والانتماء الحقيقي، بسبب مرتبته الهلامية المتغيّرة التي لا تستقر على حال.

أيها الغريب، عندما نحج إلى ذواتنا الأصيلة، فنحن نسافر من أصلنا الحيواني، بحثا عن الإلهي فينا للتماهي معه، والإنسانية هي الطريق الذي نسلكه. ولكن ذلك الطريق هو دائما قيد الترتيب والتشكيل، ذلك أنه يمرّ عبر كثبان رملية متحرّكة، لا تستقر على حال، هي أخلاقنا. وقد لا ينتهي البشر من رسم ذلك الطريق أبدا، بل إنهم غالبا ما يشوّهون معالم ما رسموه برياح غرائزهم العاتية. وبذلك سيبقى الإنسان متأرجحا ما بين الحيوان والإله، فلا هو قادر على الرضى برتبة الحيوان، ولا هو بالغ مقام الآلهة.

- ولكن ما الخلاص إذن ايها التائه؟

ـ ليس هناك خلاص أيها الغريب، لأنه مهما فعل البشر، فإنهم في النهاية سوف يتلعثمون بالحياة، ثم يصمتون إلى الأبد، ولسوف يُقادون إلى الفناء صاغرين على الرغم من أنف كبرياء إنسانيتهم. وبدلا من الاكتفاء بالبحث عن خلاص فردي، وجب على النخبة من البشر البحث عن نسب لإنسانيتنا اللقيطة، للارتقاء بها نحو ما يُفترض بها أن تكونه، وليكون نسبا كونيا، يمرّ كشعاع من النور عبر جميع مفاهيمنا ومعاييرنا ومعتقداتنا، وليوحّد بينها بضيائه، على الرغم من اختلاف بعضها عن البعض بالمضمون، وليبعث فيها عبق من الآلهة ذاتها.

ـ ولكن ما هو ذلك النسب يا صاحبي؟

أجاب التائه:

ـ إنها الفلسفة، فلا سمو للإنسان إلا بها.

ـ ولكن الفلسفة قديمة قِدم الحضارة، ونحن لا نزال نأكل من ثمارها حتى اليوم!

ـ لم يعد هناك ثمار يا غريب، لأننا أكلنا الشجرة مثل الماعز، فلم يتبقَ منها سوى أطلال. ونحن ما نزال نجترّ ما أكلناه جيل بعد جيل، لدرجة أنه لم يبقَ من نكهة الثمرة الشيء الكثير. لكن بالمقابل، فقد تعاظمت شراهتنا لالتهام كل ما حولنا ومن حولنا، من خلال ابتكارات صارت تدور في دائرة عمياء، لم يعد هناك من سبيل لوقفها. وذلك على حساب الأصالة في الإبداع والخلق.

ـ ولكن ما الفارق إذن ما بين الابتكار الدائري والإبداع الأصيل؟ أفلا يمكن تسمية كليهما إبداعا على أية حال؟

ـ نعم أيها الغريب، ولكن يبقى هنالك فارق في الجوهر؛ كالفارق مابين إبداع النحل في منح العسل، وإبداع الذباب في منح الفضلات. ومع ذلك، فإن من يبدعون على طريقة النحل، غالبا ما يكون مصيرهم الاضطهاد أو النفي أو العزلة.

مال التائه متكاسلا واتكأ عى حزمة قش كانت بجانبه، ثم قال:

ـ اسمع هذه الحكاية يا غريب.

اقتبست النحلة من الزهرة رحيقها، ثم باحت به عسلا بعد حوار حميم دار بينهما. وكان ثمة ذبابة جاثمة تراقب، فأدهشها ما رأت، ودبَّت الغيرة في قلبها وقررت أن تصنع العسل. ثم أمضت أوقاتها تتنقل ما بين الزهور وتحاورها، إلى أن دبَّ اليأس والقنوط في نفسها، من دون أن تتمكن من فهم سرّ الرحيق الذي كانت تهمس به الأزهار. ثم بعد أن أنهكها التعب، حَطَّت لتستريح على نفايات فاسدة. فدبَّت البهجة في عالمها، وغردت الحياة في ثنايا قلبها. فأكلت، ثم باحت بفضلات ما أكلته، هانئة البال، مرتاحة الخاطر، وهي تقول في نفسها: "ما أشقى ذلك النحل الذي يحتمل قبح الزهور ونتن رائحتها، ويُضني نفسه ليجني ما لا يقيت الجسد ولا يسرّ النفس"

فإن كنتَ مِمَن يصنعون العسل، لا تذِقه إلا لمن كانت له ذائقة. وإلا فالجوع أولى، إلى أن يستيقظ النحل الذي في داخل الناس.

أما إذا كنت زهرة، فلا تحزن إن نفر منك الذباب، ولا تساورك الشكوك بطيب عطرك أو أصالة ما لديك. بل افهم

بأنه على الجانب الآخر من كل إنسان تختبئ أيضا نحلة. فاغفر لما قد ظهر منهم إن استطعت، لأن في مكنوناتهم غربة تمتد ما بين الرحيق والعسل، وليس من رادم لتلك الغربة سوى الفلسفة يا غريب.

ـ لكن عجبي أيها التائه، أن الفلسفة والشقاء غالبا ما يكونان متلازمين؛ إذ أنه غالبا ما يشقى الفلاسفة، وكأن الفلسفة طريق لا مآل له سوى الشقاء!

ـ بل غالبا ما يتفلسف الأشقياء يا غريب؛ ذلك أن الفلاسفة هم من كان قدرهم أن يحترقوا ليضيئوا، ولكن الإضاءة هي نتيجة للاحتراق وليست سببا له. أعني أن الفلسفة هي ليست سبب شقاء الفلاسفة، وإنما الشقاء هو الذي دفع الناس إلى التفلسف. ولكي يكون المرء فيلسوفا، عليه أن يحوز على القليل من الإبداع والكثير من الألم. ذلك أن الألم هو السبيل إلى الخلق، وكيف يبدع من لا يتألم؛ فالألم في أحد أوجهه هو هِبة من هبات الحياة، وضرورة لاستمرار الخلق فيها، لأن جسدا لا ألم فيه، هو أقرب إلى العقم من قربه إلى الخلق. وكيف يكون ثمة خلق من دون آلام الحمل والمخاض والولادة.

يا غريب، إن في تقييد جناح الطير إطلاقا لخياله. ولما كنا مشروطين بقيد أجسادنا وأنفسنا، فإنه كلما ازداد عبء ذلك القيد، كلما انطلق خيالنا أبعد.

وعلى أية حال، فإن ذلك الشقاء وما ينتج عنه من التفلسف، هما ليسا متوقعين أو مطلوبين من عامة البشر. ولكن على العامة مع ذلك، أن تصغي وتشرّع باب فهمها لما يوحي به الفلاسفة من مفاهيم للوجود والحياة.

في الحقيقة، ليس هنالك ما هو أكثر أصالة ونبلا من الفلسفة، للإطلال على خفايا الكون. ولكن تلك الإطلالة تتطلب الغوص في أعماق سحيقة بما يكفي، للكشف عن جوهر ما. ففي الوقت الذي يلهو فيه عامة الناس بأشيائهم على السطح، يكون الفيلسوف منكبًّا في العمق، يكدّه التفكير لفهم ماهية تلك الأشياء. وهو بفعله هذا، يداوي حاله بالداء. إذ أنه ينسج من خيوط شقائه حبالا، لتكون له الوسيلة والدليل، بغية العبور إلى نشوة لا يبلغها إلا من كان فهمه قادرا على تجريد الأشياء من ثوب الكثافة، ليكسوها بحلة من بهاء الجوهر، وقادرا على إطلاق سراح الكلمة من سبي الجمود، إلى فضاء الاحتمالات، لمباغتة المعنى وهو عارٍ من قناع الحرف، ولكشف آفاق جديدة لفهمه.

إن مفاهيمنا يا غريب ما تزال قلقة، مبهمة، يعلوها الصدأ. مع أن تلك المفاهيم هي الفيصل الذي يفصل ميول البشر عن غرائز الزواحف التي في داخلهم. وبذلك فإن ترسيخ تلك المفاهيم، هو ترسيخ لإنسانيتنا ذاتها.

وإلا فكيف يمكننا العبور من مفهوم القطيع إلى مفهوم الجماعة المنظمة تنظيما أصيلا، بعيدا عن الفلسفة! وذلك من خلال إقناع أفراد الجماعة مثلا، بجدوى الأخلاق وبجدلية انعكاسها على الفرد نفسه وعلى تلك الجماعة. بدلا من فرضها عبر قيود موروثة ضيقة، أو عبر سياط قد صنعها الإنسان أو صنعتها الآلهة. ولذلك فإن تفعيل التفكير الفلسفي لدى أفراد الجماعة، هو سعي لأن تكون الإنسانية أقرب إلى الجزء الأصيل فينا، من قربها إلى الشيء المضاف إلينا. وليكون الفرد منا قادرا

على المبادرة الذاتية، لصنع إطار منطقي وراسخ لتقييد الحيوان الذي في داخله. وليتمكن من الإطلال على مفهوم الماهية، في كل من الخير والشر، الأكثر أصالة وثباتا من أنانيتنا ومصالحنا الضيقة وانفعالاتنا العابرة.

وتلك هي مهمة الفلاسفة، الذين تضيء خطواتهم الطريق أمام معارفنا ومفاهيمنا ومعتقداتنا. ليس بغية إيجاد حلول نهائية شاملة؛ فلا أحد يستطيع أن يمنح حلا نهائيا أو جوابا شافيا، لما يؤرق البشر من معضلات إنسانيتهم ومسائل وجودهم الكبرى، لا الفلاسفة ولا الأنبياء. وإنما بغية تسليط الضوء على ماهية تلك المعضلات، وبالتالي منح المقدمات المنطقية للتعامل معها. وهذا ما يمنحنا المزيد من القدرة على استساغة وجودنا، والمزيد من الشجاعة للتعايش معه.

وبذلك فإن الفلسفة هي ليست طريقا جاهزا يوصلنا إلى وجهة ما، وإنما هي البوصلة التي تهدينا إلى المسارات الآمنة، ضمن تشعبات الطريق الذي كنا نحن قد اخترنا المسير فيه. ومن عرف مسار طريقه، قطع نصف المسافة.

- ولكن هل يمكن للفلسفة أن تقودنا إلى الحقيقة؟

أعني أيها التائه، كيف يمكن للفلسفة العقلية وحدها أن توصلنا إلى إدراك ذات الكون كمعايشة، من خلال التفكير؟ ثم كيف للمقيَّد أن يستعين بقيده، في سعيه نحو الفكاك والخلاص؟ وما دمنا عاجزين عن تجاوز معارفنا الحسية، فإن كل ما نحققه من خلال الفلسفة، هو أن نغوص في المُسَبَبَات، بسبب عجزنا عن بلوغ السبب. وبدلا من السعي لكشف الستار عن الجوهر الواحد المطلق، من خلال كبت التفكير. تجدنا

نستعين من خلال الفلسفة بالتفكير، لخلق جوهر بديل، ليس له وجود إلا في أذهاننا، ويتعدد بتعدد أفهام من يتفكر به. وبذلك فإن الفلسفة تغوينا للتحليق في فضاء ذاتي مقيد بالتفكير، وتبعدنا عن الفضاء المطلق للحقيقة بذاتها.

ـ ولكن ما الحقيقة يا غريب؟ قال التائه، ثم أتبع، وقد نهض وراح يزرع الكهف جيئة وذهابا: إن الإنسان ما يزال في سعي سرمدي لمعرفتها. يستجديها لكي تتجلى، يناوشها ليختبر مصداقية وجودها، يطوف حولها، يحاول النفاذ إليها، يكتب عنها كتبا مقدسة ويسن باسمها الشرائع. ولكن الحقيقة بذاتها ستبقى محتجبة عن فهمه، حتى ولو ألقى بنفسه في لجتها، وستبقى لغزا مُحيّرا، عصيّا على أي فهم أو معرفة. فليس هناك بشر قد استطاع أن ينقل لنا أي معرفة جلية عنها، بما في ذلك الأنبياء والمستنيرون، الذين لم يستطيعوا إخبارنا أي شيء عن ماهية ما عايشوه، سوى الحديث عن شعور مبهم غامض، عصيّ على الفهم، لا يمكن وصفه بلغة الفكر والحواس.

والسبب وراء ذلك، أن نشوة الاستنارة هي أصلا تجربة مشروطة بالأفول إلى ما وراء عالم الفكر والحواس. ولكن أي شكل من أشكال المعرفة، هو مقيّد في إطار تلك المرجعية الفكرية والحسية. وبذلك، فإن أي تجربة خارجة عن إطار تلك المرجعية، هي تجربة لا يمكن معرفتها، ولا حتى لمن عايشها، وبالتالي لا يمكن وصفها بالمعرفة. ومن هنا أتت ضرورة التفلسف أيضا، من أجل تحصيل معرفة ما، حول ما لا يمكن معرفته.

أعني أيها الغريب، بأنه لا أحد استطاع أن ينقل لنا معرفة قابلة للفهم، حول كُنْه معايشته لمفهوم الحقيقة المطلقة، أو حول مغزى تجربته مع الجوهر أو الماهية أو الله. و لولا الفلاسفة لبقيت الحقيقة عقيمة بكماء، ذلك أنهم كانوا أكثر من أفلح في تحصيل معرفة قابلة للفهم والنقل حول تلك المفاهيم، بعيدا عن الخرافة والافتراء والتهويل.

وإلا، فما جدوى الحقيقة إذا بقيت حكرا على الصفوة، كتجربة يمكن معايشتها ولكن لا يمكن تحصيل أي معرفة عنها! ثم ما الفائدة لمعارفنا، مما لا يمكن معرفته! وما النفع لصلاح إنسانيتنا من معايشة حقيقة، لا تمنح أي معرفة يمكن نقلها أو تعميمها!

وهكذا يا غريب، فعلى الرغم من أن المطلق هو مطلق بذاته، ولكن مع ذلك فهو نسبي متعدد، عند محاولة نقل أي معرفة عنه، تبعا لنسبية واختلاف أفهام من عايشوه. ولذلك يبقى لكل نبي حقيقته الخاصة به، والتي قد تجنح به أو بقومه إلى سياق مناقض لفحوى تجربته مع الحقيقة بذاتها. وهنا تكمن أيضا أهمية الخبرة الفلسفية المسبقة، التي هي بمثابة الوعاء ذو الفضاء الآمن، لاحتواء ما يمكن احتوائه، من فيض ما لا يمكن وصفه أو معرفته.

ـ نعم أيها التائه، قال الغريب، ثم أردف وهو يسبر بنظراته أركان الكهف: وبذلك قد تكون أقرب نقطة إلى الحقيقة، هي نقطة لقاء طريق الروح مع طريق الفلسفة. وذلك ما كنت أسمعه من رجع صدى أقوال معلمي، على الرغم من أنه لا يعير

اهتماما للظلال أو الصدى، ولا لأي من المحسوسات أو ملذات الحواس.

قال التائه بتهكم:

ـ ومن ثم لا يتحقق خلاص الرجل إلا بنفي المرأة!

أجاب الغريب:

ـ هذا ما لم يقله معلمي صراحة. ولكني كنت قد مررت بحاج كهل، فسألته إن كان يمرُّ على طريق الحج نساء، فأجاب: "يمرُّ قاطعات طريق فحسب" ثم سألته عن سبب عدم بحث المرأة عن خلاصها، فأجاب: "إن خلاص المرأة سهل المنال، أما خلاص الرجل فهو عسير ممتنع؛ لأنه لا خلاص للمرأة إلا بالرجل، ولا خلاص للرجل إلا بالخلاص من المرأة"

ضحك التائه قائلا:

ـ كم من الرجال سيبحثون عن ذلك الطريق، فقط لكي يهبوا كل ما لديهم طواعية لقاطعات الطريق.

ـ ولكن أين المرأة من طريقك أيها التائه؟

ـ لكي تنال إعجاب المرأة وثناءها يا غريب، عليك أن تفهمها. ولكن لكي تحبك هي وتمنحك قلبها، عليك أحيانا أن تتجاهل متعمدا ذلك الفهم. وبما أن الفيلسوف لا يستطيع أن يتجاهل ما فهم، فإن المرأة غالبا ما تغدق عليه، إلى أن تغمره بمجرد المديح والثناء.

ـ أفلا يتبتل الفلاسفة؟

ـ لا التعفف عن المرأة يجدي ولا الوصال؛ ذلك أن ما يجذبنا إلى النساء هو أنوثتهن، وعلى الرغم من أننا نعاشر النساء، ولكننا لا نستطيع أن نعاشر الأنوثة بذاتها، ولا حتى أن نتعفف

عنها. لأن شأنها شأن الجمال، هي تجريد لا يمكن الإحاطة بماهيته أو النفاذ إليه من خلال أي امرأة، ولا من خلال جميع النساء. ومهما حاولنا الارتواء من جسد المرأة أو التعفف عنه، فسنبقى متعطشين أبدا للأنوثة، لأنها تغوينا لذاتها، ونحن لا يمكننا أبدا النيل من ذاتها. وبما أن الأنوثة هي ماهية جسد الأنثى، فلا نحن قادرون على النفوذ إلى الماهية، ولا نحن مستطيعون الاكتفاء بالجسد. والأمر نفسه ينطبق على الذكورة من عيون شهوة الأنثى.

وذلك ما يدفع البشر لأن يقضوا حياتهم يركضون لاهثين لإشباع تلك الرغبة، في طريق لا نهاية له، حتى ولو كان قصيرا. إذ أنهم يهيمون في سرداب عجيب، وفي نهايته يجدون باباً، فيفتحونه لينالوا مبتغاهم، ولكن ما أن يدخلوه، حتى يجدوا أنفسهم ثانية في بداية السرداب نفسه، الذي كانوا قد اجتازوه للتو، فيهيمون من جديد لاهثين نحو نفس الباب، في ذلك السرداب الدائري العجيب.

وفي الحقيقة أنه ليس هناك من منظومة روحية أو فكرية أو فلسفية استطاعت أن تنظِّم اندفاع الناس عبر ذلك الباب، بطريقة تتسم بالعدالة والإنصاف. بل ليس هنالك من إله استطاع أن يرسي إطارا عادلا للنار المتأججة ما بين الذكور والإناث، من خلال ناموس مُنصف وقابل للتنفيذ، لكي يخفف عن تلك الكائنات التائهة من لهيب ذلك النَهم الأبدي، الذي يدفعهم للهيام بغير هدى.

وهكذا فإن تلك الرغبة ستبقى بمثابة المُحرِّك لخطواتنا، للسير إلى حيث نريد أو لا نريد، وكأنها تسحبنا

بسلسلة موصولة بقيد مغلول إلى أعناقنا بإحكام، ولكن كلما تقدم بنا العمر، كلما تراخت تلك السلسة، وكلما ازداد القيد ضيقا وإحكاما حول رقبتنا. ولا خلاص لأحد من تلك السلسلة ومن ذلك القيد، ولا نهاية لذلك التيه.

ـ أفلهذا السبب اخترت لنفسك اسم التائه؟ وإلا فمن أطلق عليك ذلك الاسم؟

ـ إنه الطريق يا غريب.

***

غادر الغريب الكهف، حيث كان الظل يسير وهو يتلفت حوله ويختلس النظر إلى الوراء قائلا:

ـ يا غريب، ألم تجد سوى التائه لكي يدلَّنا على الطريق!

***

شركاؤنا في الحياة

لن تبلغ من الدين شيئا، حتى توقِّر جميع الخلائق.

محي الدين بن عربي

لم يمضِ وقت طويل على مغادرة الغريب وظله لكهف التائه، حتى سمعا صوتا ينادي:

- توقَّف أيها الإنسان.

ولما استدارا، شاهدا ثلة من الحيوانات تكشف عن أنيابها وتشهر مخالبها وقرونها، سرعان ما أحاطت بهما من كل جانب.

قال الظل:

- يبدو أن التائه قد أطلق مخلوقاته وراءنا، بتهمة الانتماء لبني البشر؛ فهو يحب جميع الكائنات ما عدا الإنسان، والهيئة أننا لم نغادر مملكته بعد.

أجاب الغريب:

- كف عن هذا اللغو أيها الظل، ولا تفزع منهم؛ فهؤلاء ليسوا بشرا.

ثم ما لبث أن تقدم كبش من بين الجموع، وقال مخاطبا الغريب:

- إلى أين تمضي أيها الإنسان؟ أليس هناك حدود لجشعك؟ لقد أتلفت الأرض وما عليها، ونشرت لعنتك أينما حللت، وما زلت

تكفر بالطبيعة والكائنات ولا تؤمن إلا بنفسك؛ فتقتل وتنهب وتعيث في الأرض فسادا. أفلم تمتلئ خزائنكم بعد يا معشر البشر؟

أيها المتأنسنون الذين ما زلتم تقتلون بعضكم لمجرَّد المزيد من الرفاهية والرخاء، وتلتهمون جثث الكائنات التي كانت تسكنها الحياة، ثم تصلّون إلى اللّه وتسألونه أن يمنحكم السلام. فهل حصلتم عليه، يا من تزعمون بأنكم قد تجاوزتم شريعة الغاب؟ ولكن هل تحرَّر الإنسان أصلا من القرد الذي كانه؟

ثمة قرد كهل كان يصغي وهومتكئ على جذع شجرة، يُمسِّد لحيته بأصابعه، ويحدج الغريب بنظرة ملؤها الريب، فقال:

- ما زال يبحث البشر عن كتفٍ ليسندوا إليه نسبهم؛ فيزعمون بأن أصولهم تعود لنا، وهذا خلط في الأنساب لا يُشرّفنا ولا نقبل به. وكذلك فإنهم كلما حاولوا أن يبحثوا عن مبرر لهمجيتهم، تراهم ينسبوها إلى فصيلة القرود التي تفرعوا منها، وهذا باطل ما بعده باطل؛ فنحن لم نكن يوما أسخياء في سفك دماء أبناء جلدتنا، ودماء باقي الكائنات مثلما يفعل البشر. ثم حاشى للقرود أن يجمعهم نسب واحد مع البشر، ما دام الكذب والغش والنهب إلى حد التخمة، والأنانية التي لا تعرف الحدود، هم صفات إنسانية بامتياز، وما الإنسان سوى حيوان قد تضخمت أناه. أما نعمة العقل التي تزعمون التفرّد بها، فهي سيف ذو حدين، صار الإنسان يستعملها ضد نفسه وضد من حوله.

وكذلك فإن الفرق في الخطوة بين متسابقين، هي المسافة الحقيقية التي يقطعها الفائز طيلة السباق، فلأي غاية استعمل

الإنسان ذلك الفرق؟ ما دام العقل البشري نفسه قد صار يتدحرج تائها مثل كرة ثلج، أصبحت تكبر وتسحق ما تمرّ به، من دون وجود عقل مدبر بداخلها ليلجمها ويتحكم باندفاعها. وهذا ما يقربنا من نهاية هذه الدورة من وجودنا، بسبب ما تنجزه عقولكم التي لن تعرف النضج أبدا، مهما بلغ عمر إنسانيتكم. ذلك أن النضج هو حالة غير مرتبطة دائما بالعمر، ولا بتراكم التجارب والسنين؛ إنها حالة ذاتية بحتة، ولكنها قد لا تأتي أبدا.

ثم تخيَّل أيها الإنسان، لو حدث ولم يكن هناك بشر في دورة جديدة ستأتي. ثم سادت القرود على الكائنات، رغم محدودية فهمها. فإن مما لا شك فيه، أن رفاهية القرود ستكون أقل، مقارنة برفاهية البشر. ولكن بالمقابل، فإن القتل والدمار والتخريب سيكونون أقل كثيرا في عالمنا ذاك. وكذلك فإن التناغم والوئام والسلام، سيكونون أكثر انتشارا مما هو عليه الحال في عالمنا هذا الذي يسوده الإنسان.

فافهموا يا بني البشر، ولا تخلطوا الأنساب زورا وبهتانا، والأولى بكم ان تبحثوا عن نسبكم الضائع، بدلا من حسد الآخرين وسلبهم لأنسابهم؛ ذلك أنه يبقى الحسود مسلوبا لما سلبَ.

سمع حمار ما قاله القرد، فنهق ضاحكا إلى أن انقلب على ظهره من شدَّة الضحك، وهو يُحرِّك أطرافه في الهواء، ثم قال:

- حتى القرود تتبرأ من نسب الإنسان لها! فهل ينسب الإنسان يوما نفسه لي؟

ثم قام ينشد والنشوة تملأه:

يبقى الحسودُ مسلوباً لما سلبَ يا أيها الإنسان ها قد فاتكَ النسبَ
فالقردُ يُنكرُ أن الأصلَ يجمعكم حتى ولو كان مِمَن خلفه ذنبا
لا يُنكر الجدُّ أحفاداً بلا سببٍ فكل أمرٍ ويكمنُ خلفه سببا
في داخل الإنسان قرد قد رأى عجباً فراعهُ ما رأى حتى قرّرَ الهربَ

قال الغريب:

ـ أيتها الكائنات، نحن جميعا بوح اللّه على هذه الأرض وانعكاس لجماله، فعلاما نتبرأ من نسب واحد يجمعنا بالجمال والجلال؟

أجاب ثعبان، وهو ينتصب متمايلا، كمن سمع كلاما لم يرق له:

ـ لقد باح اللّه بما في ذاته فنطق الإنسان، ثم جاء الشيطان ونسب الكلمة إليه. وهكذا انقسم البشر حول أصل نسبهم، إلى أن خبروا ملذات الحياة، فصاروا أقرب نسبا إلى الشيطان من قرب نسبهم إلى اللّه. وهل من شياطين على هذه الأرض سواكم يا معشر البشر!

لقد نسجتم عني الحكايات، وجعلتم من شروري متنفسا لأساطيركم، ومضربا لأمثالكم. ولكن من منا أكثر خطرا وسُمّية على نفسه وعلى الآخر؟ ثم لو التقى إنسان بثعبان، فمن منا يسعى إلى قتل الآخر، ومن منا ينسلُّ هاربا بحثا عن السلام؟

أما أنا إن قتلت؛ فإني أقتل لأحصل على قوت يومي، ثم أخلد إلى جحري، لا أطلب سوى خبز الكفاف. لكن الإنسان لا يكتفي أو يرضى أبدا، وسيبقى يقتل وينهب، حتى لو امتلك قوته وقوت أجيال ستأتي بعده.

ثم أطل جرذ برأسه من وراء أكمة مجاورة، وقال:

ـ اسمع أيها الثعبان، إن الغريب هو ضيفنا، ويبدو أنه يحمل لنا رسالة محبة، وإن لدي ما أقول له. فلا تقربني، ودعني أكمل خطبتي في سلام.

ثم سار الجرذ وانتصب فوق الأكمة مخاطبا الغريب:

ـ إن من كان في جسده دنس، فقليل من الماء كفيل بإزالته. أما من نفذ الدنس إلى سريرته، فلا سبيل له إلى الطهارة، ولو استعان ببحار الأرض كلها، واللبيب من الإشارة يفهم يا صاحب العقل. وكذلك فإن الشراهة والطمع هما شرّ ما تبتلى به الكائنات.

ثم راح الجرذ يقص على الغريب قصة الهرّ الشره، الذي جاع فأكل كل ما حوله، ثم بدأ بأكل نفسه، حتى لم يبقَ منه شيء.

ـ وهذا ما سيؤول إليه حالكم يا بني البشر، أردف الجرذ، ما دمتم تنهبون من الطبيعة ومن ذواتكم، سعيا وراء الترف، وتقايضون البخس بالثمين، مثل من يسرق من ذاته لكي يُطعم أناه. فهل من الحكمة أن يقايض النهرُ نبعه بجدول مارق ضحل؛ طمعا بوفرة الماء؟ ثم ألم تفهموا بعد بأن للروح حرمة يا معشر البشر؟ وأن لي أنا أيضا حواس وأنفاس وقلب ينبض وجوهرة في داخلي اسمها الروح؟ فما الفرق ما بين روحي وروحك أيها الإنسان؟ أليست الحياة هي الحياة؟ أليس هذا ما يتغنى به العقلاء منكم؟

ثم ماذا تراك فاعل يا غريب، لو كان تم قذفك إلى الوجود على هيئة جرذ، ثم طاردتك الكائنات العاقلة، لجرم لا ذنب لك فيه، سوى أنك تمارس حياة كانت قد وُهبت لك؟

أما إذا كنتم تظنون بأنكم ستنعمون بالسلام إذا انقرضت الجرذان، فثق يا غريب، بأنه لن يعمَّ السلام في هذا الكون، إلى أن ينقرض بنو البشر.

ثم التفت إلى الثعبان قائلا:

- وإلى أن تنقرض الأفاعي أيضا.

ثم استدار الجرذ وفرَّ هاربا.

قال الظل هامسا في أذن الغريب:

- يبدو أن جميع الكائنات تحتقر الإنسان وتبخس من قدره، بما في ذلك الإنسان نفسه!

أجاب الغريب:

- ويبدو كذلك أن الإنسانية هي نعمة لنا ونقمة علينا، والخشية أنه قد يكون الإنسان أكثر الكائنات شقاء؛ ذلك أنه إذا فرح ففرحه كبير، ولكنه إذا تألم فألمه أكبر. وذلك ما لا تعرفه عنا باقي الكائنات.

ثم توجَّه الغريب إلى الحيوانات قائلا:

- يا شركائي في الحياة. أنا غريب عن أهل جلدتي، وذاهب لأبحث عن ذاتي في جميع الكائنات. وما أنا بقاتل نفس، أو منازع أحد على ما له أو ما فيه. فدعوني أكمل سعيّ نحو الحياة ذاتها، التي تجمعني بكم.

تقدم القرد الكهل ثانية ثم قال:

- حسنا يا غريب، ولكن قبل أن تمضي إلى غايتك، اسمع هذه الحكاية، لعلك تأخذ منها عبرة تعينك على فهم أبعاد الطريق.

تلفَّت القرد إلى مَن حوله يُمنة ويسارا، وكأنه يدعوهم للإصغاء وهو مُتيقن من تأييدهم لما سيقول. ثم توجَّه بنظره نحو الغريب قائلا:

يُحكى أن جماعة من القرود، كانوا قد سئموا حياة الأدغال، فتسللوا يوما إلى مدينة مأهولة بالبشر، ليستطلعوا أحوال أهلها وليتعلموا من عاداتهم. ولكن أهل المدينة لم يُحسنوا أدب الضيافة وراحوا يطاردون القرود أينما حلّوا، لإخراجهم من مدينتهم. ولما كانت الإقامة في المدينة قد طابت للقرود، كانوا يتوارون في مكامن لا تبلغها أعين البشر، أو كانوا يعتصمون في أعالي الأشجار السامقة، فلا تصلهم يد إنسان. ثم راحوا يتنقلون بخفة، ويقضون حاجاتهم خلسة تحت جنح الظلام، ويعبثون بما يحلو لهم، نكاية ببني البشر.

ولما ضاقت صدور أهل المدينة بالقرود العابثة، لجأوا إلى عرَّافهم، ليشور عليهم بما عنده. فاستلهم العرَّاف السماء، إلى أن أتاه منها وحي، ثم خرج إلى أهل المدينة وأخبرهم عن عشبة، تستنهض غرائز الحيوانات، فينتشون ويصبحون لا مبالين بما حولهم إذا اشتمّوها، وأمرهم بأن يجمعوا العشب ويحرقوه في أنحاء المدينة؛ فإذا تنشّقت القرود رائحة ذلك العشب المحترق، غلبت غرائزهم على فطنتهم، وبذلك يغادرون معاقلهم ويهيم الذكور والإناث منهم نحو بعضهم، لاهين عابثين بدون مبالاة أو اكتراث، لما يحيق بهم من أخطار، وهكذا سيكون من السهل أسرهم والقصاص منهم.

وبينما كانت القرود جاثمة تراقب، فعل القوم ما أمر به العرَّاف، فأحرقوا العشب في شوارع المدينة وأزقتها. ولكم

كانت دهشة القرود كبيرة، عندما رأوا العرّاف ومعه كل من في المدينة من رجال ونساء، قد خرجوا عن طورهم، وبدأوا بخلع ثيابهم، ثم شرعوا بالعبث والرقص والهرج، لاهين عابثين، بدون مبالاة أو اكتراث.

***

الناسك

اطّلع اللّه على قلوب أوليائه
فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفا
فشغلهم بالعبادة....
عجبتُ ممن عرف اللّه كيف يعبده.

أبو يزيد البسطامي

مضى الغريب متفكّرا فيما قاله القرد وصحبه عن الإنسان، وفيما قاله التائه عن زيف وهشاشة الانتماء للإنسانية. فشعر بالتيه يلفّه، وبالغربة تكبر في داخله، وبدأ يضيق فضاؤه بمحدودية انتمائه لما حوله. ولكن الحيرة لم تأخذه بعيدا، حتى تذكر ما قاله الشيخ، عندما أوعز له بأن يجعل الشرق مبتغاه ووجهته، إذا ما تاه عن الطريق. فجنح نحو الشرق، وهام يحثّه توق جامح إلى انتماء علي، يجمعه في رتبة واحدة مع جوهر جميع الكائنات.

وما خاب سعيه للقرب مما يريد؛ إذ مرّ بناسك كان يجلس متأملا في البعيد، وكان وجهه أشبه بقمر يعكس نور شمس ما. فترجل الغريب عن حصانه واقترب من الرجل وحيّاه. لكن الناسك بقي واجما لبرهة، ثم استدار نحو الغريب، كمن ينسلّ من عالم لعالم، وأطلق نظراته لتبحر في ملامح وجهه، ثم رد التحية وهو يبتسم ابتسامة مفعمة بالسلام.

وقبل أن يسأله الناسك، بادره الغريب قائلا:

ـ أنا غريب قد تاه عن الطريق، وقد قادتني خطى حصاني إليك.

ـ أحدُسُ بأن حصانك مُسرَج للحج، قال الناسك.

ـ هو كذلك يا سيدي، ولقد منحني إياه معلمي.

ـ هنيئا لك هذا الجواد يا غريب؛ فالحصان الأصيل قد يُقرِّب فارسه من بُعد لم تقربه قدم من قبل. وإني أرى بأن الفارس لا يقلّ أصالة عن الجواد، قال الناسك، وكأنه يريد أن يستحثَّ الغريب ويبارك سعيه. ثم نهض وربت على كتف الغريب قائلا:

ـ طوبى لمن ضاقت به دياره، فرحل عنها ليجدها في كل مكان.

ـ وهل أنت أيضا ممن هجروا الديار أيها الناسك؟

أومأ الناسك برأسه قائلا:

ـ لا حاجة لي بدار تأويني؛ فالكائنات حولي تأنس ببعضها، وليس فيهم كائن يأكل الأخر. ثم أن المناخ معتدل في عالمي؛ فلا كفر يضنيني ببرده ولا إيمان يصليني بحرِّه، ولا شك يعصف بي، ليبعثر حصادي أو يعبث به. فما حاجتي لعقيدة أتحصن بها، أو لناموس يُسيّج جوارحي، وقد تسيَّج قلبي باليقين! وكيف لي أن أخلد إلى نزلٍ بناه غيري، من بعدما أدركت فضاء اللّه اللامحدود!

مال الغريب نحو الناسك برفق، كما يميل ظمآن بتهذيب نحو الساقي، ثم سأله:

ـ إذا كان الكفر يضني ببرده، والشك يعصف برياحه، فكيف للإيمان أن يُصلي بحرِّه؟ أفلا يمكن للإيمان أن يكون مقدمة لليقين؟

ـ والكفر والشك قد يكونان كذلك. ولكن ليس في أي منهم ما هو ضرورة لبلوغ اليقين، ولا لأي منهم القدرة على الوجود حيث يوجد.

ـ و لكن لماذا على الغاية أن تثبت نفسها من خلال إقصاء الوسيلة، حتى ولو انتفى التناقض ما بينهما؟

ـ لو كنت تسير يا غريب على اليابسة ناشدا البحر، وكان ثمة مسالك متعددة يمكنك السير فيها. فمهما كنت تقدس درب اليابسة الذي سلكته، فإن مغادرتك إياه، هو شرط لدخول عالم الماء؛ لأنك إذا تمسكت بالدرب، لن تبلغ بغيتك أبدا. فأنت لن تستطيع أن تبحر في الماء، وأنت موجود على اليابسة، ولا أن تحمل درب اليابسة معك إلى الماء. أما إذا أطللت على البحر، فسوف تأخذك الدهشة، بأنه هو من كان قد تقرَّب إليك، ولم تقرّبه إليك أي من المسالك أو الدروب، وبأنه كان أقرب إليك من جميع ما سلكت.

يا غريب، إن الشمس لا تطرق باب الفجر مستأذنة، بل مبشِّرة بذاتها، فارضة لأنوارها عنوة عن الظلام. وكل ما يجب عليك فعله، هو أن تخرج من حفرة أناك، لا أن تحاول استحضار الشمس؛ فلا تتقرب إلى اللّه لكي يفتح عيونك للنور، بل افتح عيونك للنور، ولسوف يتقرب هو إليك.

ـ إذن، اليقين هو خروج عن الإيمان. ولكن ذلك ما يسميه أهل الشريعة كفرا!

- إن الإنسان يؤمن بما لا يعرف يا غريب، ولكن عند معرفة الشيء يقينا، ينتفي السبب للإيمان به؛ فإذا كان وجودنا مثلا، هو أشبه بحجرة، ليس لها أي نوافذ تطل على الخارج، وكنا نسمع صوت هطول المطر، من دون أن يكون لدينا القدرة، أو ربما الميل للخروج من حجرتنا بغية التحقق من ذلك. إذن فنحن نكتفي بمجرد الاعتقاد بأن السماء تمطر، وذلك هو الإيمان.

ولكن قد لا يكون هناك مطر في الخارج، وكل ما في الأمر هو خدعة حواس؛ فالصوت الذي كنا نعتقد بأنه ناتج عن هطول المطر، قد يكون مجرد صوت ارتطام حبات من الرمل بجسم ما، بسبب هبوب الريح. وفي هذه الحالة فنحن نؤمن بشيء غير موجود.

أما لو تمكّن أحدنا من إيجاد وسيلة للنفوذ إلى خارج الحجرة، واستطاع أن يعايش المطر، بأن يراه ويبتلّ به ويُشبع منه حواسه، فيصبح بذلك متيقنا من وجود المطر. ومن العبث حينها أن يعتقد بأن السماء تمطر، لأنه صار يعرف ذلك.

- ولكن هل يمكنه بذلك تحصيل معرفة ما عن المطر؟

- بل يمكنه تحصيل ذات المعرفة؛ تلك التي تحيط بالأفكار والحواس، ولا تحيط بها الأفكار والحواس. ولكن لا يعرف إلا الندرة من البشر، فلا عجب أن يجد عامة الناس طمأنينتهم بالإيمان. مع الفارق؛ بأن الإيمان يغوينا بالماء، ولكن العرفان يذيقنا إياه. أما من احتكروا الإيمان لأنفسهم، وزعموا بأنهم يمتلكون الحقيقة وحدهم، ثم أنكروا اليقين على أهله. فهؤلاء هم الذين يشيّدون حصونا من حولهم، بحثا عن الأمان لا بحثا عن الحقيقة. بل أنهم يعتصمون بشرائعهم، خوفا من

الحقيقة، ثم يعبدون الله، فينشغلون به عنه. أما أهل الحقيقة، فلا تسعهم حصون، يرجمهم من في داخلها، إن لم يدخلوها.

يا غريب، إن بناء قلعة من الوهم، أسهل من العثور على حجر يسند خاصرة اليقين؛ فلا تمار الناس في عقائدهم، لأنهم قد يثورون عليك، ليس دفاعا عن العقيدة لذاتها، وإنما دفاعا عن تماسك أمنهم الداخلي، الذي كانوا قد شيّدوه بحجارة تلك العقيدة.

فاردم هُوَّة الخوف التي في داخلك بمعول البصيرة، إلى أن تبلغ السلام. ولكن لا تقلق الخائفين، ودعهم يعيشون مع عقائدهم في سلام.

قال الغريب:

ـ فليجافيني السلام، إلى أن تطرق الشمس باب فجري، كي أراها في حياتي، قبل أن تلفظني حفرتي عنوة.

أجاب الناسك:

ـ ولكن تذكَّر يا غريب، بأنه يسعد من يسعى نحو الكمال، ويشقى من يُشرط سعادته به. فلتكن سعادتك مشروطة بالسعي لما تريد، لا بما تريد. وبما أن ما تريده لا يمكن بلوغه بالإرادة؛ فلا تريد ما تريد، لكي يتحقق ما تريد.

ـ فكيف أيها الموقَّر، بلَّغكَ الكفُّ عما تريد، لما تريد؟

رنا الناسك إلى الغريب بنظرة كان يجتمع فيها عُلو القدر وتواضع النفس، ثم قال بوجه طلق وصوت مطمئن:

ـ لقد عثرتُ على طريق أنار لي طريقي كله يا غريب؛ فقد كنت أستحضر شعورا إلهيا في داخلي، كلما ركنت إلى خلوتي. وكان ذلك الشعور أشبه بنصل من السنا يتخلل جسدي، فصار

شاغلي لا يشغلني عنه شيء أو بشر أو إله. ثم كنت إذا فرغت من خلوتي واحتجب النصل، كان يبقى السنا، فيحضرني في حركاتي وسكناتي، إلى أن كانت خلوة اكتمل فيها النصاب، واشتعل كياني كله وذاب في ذلك النصل. فأدركت بأنه "أنا" لم أكن أخبرها من قبل، ثم احترق كل ما عدا ذلك ما بين الأرض والسماء، بما في ذلك "أنا".

لم يُطلق ما كان كامنا في داخلي يا غريب، سوى التقيّد بمسارات هي أضيق من أن يحتمل السير فيها بشر؛ إن القيد هو الذي حرّرني وأطلق بصيرتي نحو ما كان مستترا. فثمة كنز كامن ما وراء الحواس وما وراء الصفات، لا يشبهه شيئا مما شاهدته عين أو خاله بشر، من ظفر بمشاهدته، لن يشيح ببصيرته عنه، ولو اقتنى كل ما في خزائن الأرض من كنوز. هو كنز مكنون، لا يسعى إليه إلا من أثقلت أناه بحمل ثقيل. فإن بلغه، ذهب الحمل وذهب الحامل.

فإن شارفت على تخوم الحقيقة، حذار على نفسك من هول جمالها، ولا تقترب منها إلا بتؤدة. فالحقيقة أنثى؛ تغوي من تحب، ولكنها لا تحب من يندفع وراء إغوائها، ولا ترأف بمن يجهل أحابيلها.

***

مضى الغريب نحو مبتغاه وبَرَكة الناسك وحكمته تلازمانه، وتحفّزان سعيه؛ فراح يُمضي جلّ وقته في التأمل الروحي، زاهدا متبتلا، لا يأكل من الطعام إلا ما يسدّ الرمق، ولا يقرب منه إلا ما تنبته الأرض. فكانت أفكاره تصفو وتزداد

وضوحا وجلاء، وكانت نفسه تسمو وتزداد نبلا وسكينة. أما ظله، فقد صار رشيقا، فيّاضا بالأنس والبهاء.

لقد أطل الغريب على الوجود بعيون جديدة جلية؛ فأدرك ما في الحياة من كلية وشمول، وأعتق فرديته لتذوب في فضائها، وأشرع الأبواب لأناه لكي تتحرر من محدودية جسده ونفسه واسمه. فأحب كل ما حوله ومن حوله، ووجد ذاته في جميع الخلائق؛ وجدها في الديدان والأفاعي والخنافس، مثلما وجدها في الغزلان والطيور والبشر، فأنكر الأجزاء، من بعدما نذر نفسه لكي يذوق طعم الكل. لقد اقترب كثيرا وانطلق في الأرض حرًّا منتشيا، وكأنما لا يفصله سوى خطوة واحدة عن الماء. ولكنها كانت خطوة عصيَّة وغير قابلة للاختزال.

***

الراعي

إن الأهواء هي الرياح التي تنفخ في شراع المركب؛
إنها تغرقه في بعض الأحيان،
لكن المركب عاجز عن الإبحار بدونها.

فولتير (بتصرف)

ثم حلَّ برد مفاجئ، وصار الظل يشكو ويتململ من لسعة البرد. فراح الغريب يبحث عن وسيلة يقدح بها شررا لكي يستنطق النار ويدفئ ظله، إلى أن مرَّ براعٍ، فاستوقفه وسأله:

ـ أما في هذه الأصقاع من يستطيع أن يشعل النار، أو يمنحني قبسا منها؟

ابتسم الراعي ابتسامة المتعجب، ثم قال:

ـ يا غريب، لا يُشعل النار إلا الخمرة والنساء، وها أنا ذاهب لأحرق حطبي هناك.

ـ ولكن عنبي لم ينضج بعد أيها الراعي. أما النساء فنارهن حامية، تحرق من يقربها، ثم تطفئ ما تشعله.

ضحك الراعي قائلا:

ـ فلتبقَ على زهدك إذن إلى أن ينضج عنبك، ولكنه لن يصبح خمرا أبدا، ما لم تسلم جرارك لدفئ امرأة. وكيفما وجّهتَ شراعك، فإن الريح ستتآمر عليك، إلى أن ترسي قاربك في ميناء دفئهن.

يا غريب، إننا نحمل الحطب على ظهورنا عبئا ثقيلا، بينما تخفي النساء النار بين ثيابهن، وهُنَّ يبحثن عن الحطب بخَفر؛ فالأولى بنا أن نحرق ما فاض من حطبنا ونستريح، بدلا من أن تبليه الرطوبة والعفن.

أجاب الغريب:

- ما سعيت نحو النار إلا نزولا عند إلحاح رغبة الظل. أما أنا، فلا غاية لي سوى الماء، وهذا ما كنت قد عاهدتُ عليه معلمي.

- لا بأس أيها الغريب، فالماء والنار هما من جذر حقيقة واحدة، وما يربطهما هو صلة رحم. ثم أن الأشياء تعرف بنقائضها، والشيء لا يمكن إدراكه إلا من خلال ضده. فهات ظلك وهلمَّ معي، لكي تستدل على وحدة الأضداد في جسد؛ ذلك أنه لا دفء ولا ارتواء إلا حيث تحضر النساء.

ابتسم الغريب بخيلاء شاكرا الراعي، ثم استحثَّ حصانه على المسير ومضى.

لكن الظل سرعان ما قفز عن السرج وأمسك بلجام الحصان معترضا طريقه، بينما كان الغريب يمسك بزمامه ويستحثه للمضي قدما. فجفل الحصان وأخذ يصهل ويدور في مكانه.

صاح الغريب:

- كُفَّ عن هذه العربدة أيها الظل، ودعنا نمضي في سبيلنا.

فأجاب الظل غاضبا:

- إن البرد يلسع جنباتي يا صاحبي، وإني أحتاج لبعض الدفء. فدعنا نقتفي أثر الراعي، علَّنا ننعم ببعض الدفء من النار التي سيتم إضرامها هناك، ثم نكمل مسيرنا بعد ذلك بعزيمة أكبر.

وهكذا بقي الغريب وظله بين أخذ ورَد ، والظل يمسك بلجام الحصان بعناد وإصرار، إلى أن نزل الغريب عند رغبة الظل، مشترطا أن يمرّا مرور العابرين بمحاذاة النار، من دون القرب منها. فاقتفيا أثر الراعي راجلين، كلصّين يتلويان جوعا ، ولا هَمَّ لهما سوى تحصيل بعض القوت، إلى أن بلغا مضارب النساء.

***

الحجُّ إلى الأنوثة

كل تعميم خطأ، بما في ذلك هذا التعميم.

مارك توين

كانت النساء أشبه بأرانب طاهرة بيضاء، تعبث وتستحم برذاذ غيوم، كانت قد أغوتها الأنوثة، فتدلّت من أغصان السماء، لتغازل بهاء المرأة ولتدغدغ ينابيع شذاها. فبدا كل شيء دافئ، وردي اللون، حنون الطلة، بهي الهيئة، شذي العبق؛ وكأنما الوجود بكل ما فيه قد بات مستساغا، أنيسا، مفعما بالتناغم والسلام.

كان الظل يُحدّق ويسيل لعابه مثل كلب جائع، قد بدأ يلهث عند رؤية الطعام. أما الغريب، فقد شعر بما يشعر به ذكر العنكبوت قبيل تلقيح أنثاه، وهو يعرف مصيره سلفا. فهمَّ ليستدير ويعود أدراجه، ولكن الظل أوقفه وأخذ بتلابيبه قائلا:

- إلا المرأة يا غريب. فلقد مرّ دهر وأنا أسير معك وأطاوع خطاك، زاهدا متعففا عن كل بهجة ومسرّة، على أمل العثور يوما ما على الماء، وليس هناك ماء. فدعنا من أوهام خلاصك القابعة هناك، وتذكّر بأنه لا خلاص إلا هنا والآن. إن الحقيقة تسطع أمام عينيك مثل شمس الهاجرة، فهلمّ بنا لكي تغمرنا بدفئها وتنسينا ما فات من شظف الطريق.

أجاب الغريب متلعثما:

ـ ولكن لذة الحواس لا يمكن إشباعها، وهي تقوّض الجسر الذي قاربنا على إتمام بنائه، لكي نعبر إلى الجانب الآخر من وجودنا. أم هل نسيت ما أوصانا به الشيخ؟

قال الظل ساخرا:

ـ مهما طال جسرك، فهو أقصر من أن يعبر بنا إلى الجانب الآخر يا صاحبي. ولو استطاع "النيل" أن يعبر "المتوسط" إلى الضفة الأخرى، فلن يستطيع الرجال أن يتعففوا عن جمال ورقة النساء.

أيها الغريب، ألا ترى أن المرأة تنتصب أمامك بكامل زينتها وبهائها، وتطلُّ بأنوثتها كفرحة فجر خجول، قد انتشى بالنور، فراح يتوسَّل ولوج شعاع الشمس، لكي يهِبَ نفسه للنهار؟ فكن رجلا عندما تكون في حضرة النساء. ثم إن حطبك قد أضنى كاهلي وأشقى حالي، فتعالَ لنلهو بإحراق ما فاض منه، لكي ننعم بالدفء، ولسوف تنمو لنا غدا أشجار فتية قوية.

***

ثم ما لبث أن غمر عبق سحر المرأة حواس الغريب، وكان ثمة بوح أنثوي حميم، آتٍ من مكان ما، يناجي شغفه قائلا:

ـ إن سمائي حبلى يا غريب؛ فحُكَّ مكمن البرق فيها، ولسوف تفتح أبوابها وتمطر ياسمين.

وهاهي كرومي قد أينعت لسواي، وهي تقطر شهدا؛ فصار بستاني يتوق لمن يكسر أسواره ويسبي عناقيده، ليعصرها ثم

يبعثها خمرا لكلينا. فلقد أتيتك والنحل يلسع جسدي، فلا تردَّني قبل أن تملأ جراري بالعسل.

يا غريب، إن في داخلي ظبيا تائها متعثرا يشتاق سهامك؛ فأطلقها لكي تطلقه وتحرّر خطاه.

وإن في غابات حنيني أسرابا من العصافير الجائعة تغرِّد باسمك أيها الرجل، ولا طاقة لي على إسكاتها؛ إلا بإطعامها من غلال دفئك.

إن حديقتي عطشى لغيثك؛ فامطرها من وجد سمائك، ثم بعثِر رياحيني ورتبها كما تشاء.

أما إذا كانت الحقيقة قد راودتك عن نفسك، فاذهب للقائها. ولكن لن يكون لك زاد على الطريق، إذا لم تنهل مما فاض من رحيق مهجتي. ثم لن تراقص قلبك بهجة في هذه الدنيا، إذا لم تراقصني رقصة الحياة.

***

ثم كان دفق من الهمس يتناهى إلى خاطر الغريب، ما لبث أن تعالى وصار صهيلا؛ لقد كانت الشهوة في داخله قد جمحت، وصار شبقها يصهل في عمق شرايينه. فألقى أحماله على أعتابها، وأطلَّ من رتاجها، ليخلص إلى دلالة مما سمع.

فخاطبته الشهوة قائلة:

- لا تعصِ أمري يا غريب، فإن مشيئتي هي العليا، ولا طاقة لك على ردّها.

قال الغريب:

- ناشدتكِ بما أنا فيه، أن تبوحي لي بسرّ سلطانك.

فأجابت:

- أنا الحاكمة بلا تاج أو صولجان، ولكن سلطاني قد ركعت له جميع الكائنات على مرّ الزمان.

أنا العارية منذ الأزل، والحرَّة الطليقة أبدا.

أنا المهرة الجامحة، التي ترمح ما بين النساء والرجال، في ميادين الشبق الحلال. فاجتمع الحكماء منكم لكي يلجموني، ولكنهم ألجموا البشر وبقيت أنا جامحة حرَّة؛ أرمح فيما بينهم، وفيما حولهم، وفيما وراء دوافعهم وأفعالهم.

إن صهيلي هو للحياة بلسمها، وحافزها، وباعث استمرارها.

إن قيدتموني أصهل من عيونكم ومن مسامات جلدكم. أصهل في عمق وجودكم وفي فضاء وجدانكم، إلى أن تطلقوني.

أنا منتصف الجسر الذي يلتقي عنده الحائرون من الذكور والإناث، ثم يعود كُلّ إلى ضفته أكثر حيرة؛ ثم لا يجدون تفسيرا لحيرتهم، إلا بالعودة لانتظار بعضهم عند منتصف الجسر.

أنا الكأس التي تدور على شفاه العطاشى؛ ينهلون حلو شرابي من بعضهم، مع أنهم ليس لهم من بعضهم غاية سواي.

ثم همست الشهوة في أذن الغريب باسمة:

- يا غريب، كلكم للفناء؛ فاقتربوا من بعضكم وتعانقوا وارقصوا، إن لهيب عطشكم لا يطفئه إلا رقصة الحياة.

ثم هبَّ النبيذ على خيال الكروم وأيقظ شهوتها، فتاقت لأن تفني نفسها لتكونه.

كفتيل سراج مطفأ مسَّه لهب، فانتشى وصبا ليغمد حنينه في نهم النار؛ توقا لرعشة النور.

كرحيق زهرة أغواه الحصاد؛ فأغوى نحلة لكي تعبر به نحو الشهد.

وهكذا تسارَرت الأنفس، ثم تكاشفت الأجساد وتوحدت. وكان ثمة خمر عتيق يغلي في العروق، ومنه اندلع اللهب.

***

ـ إلى متى ستبقى مطرقا واجما أيها الغريب؟ سأل الظل.

أجاب الغريب:

ـ لقد كان التائه على حق؛ فالمرء مهما عاشر من النساء، فإنه لن يستطيع النفاذ إلى الأنوثة بذاتها، وبذلك يبقى الارتواء أمرا غير ممكن. ثم أن في داخل كل امرئ مولِّد للحنين، وعندما يمتلئ المرء بحنينه، لا بُدَّ له من أن يبوح به إلى الضفة الأخرى من الجسد، وليس هنالك من جسر لعبور ذلك البوح سوى جسد المرأة. وبذلك فإننا لن نبلغ الخلاص أبدا، لأننا سنبقى نهيم لاهثين في طريق قصير، ولكن لا نهاية له، عبر ذلك السرداب الدائري العجيب.

وبينما كان الغريب وظله جالسين، والحيرة بادية عليهما. مرَّت بهما راهبة، كانت تبحث عما تداري به شهوتها. ولما عرفت سبب حيرتهما، قالت بتهكُّم:

ـ لو عرف الرجال ما تعرفه المرأة عن باطنها، لتعففوا عنها.

فسألها الغريب بفضول:

ـ وهل عرفتِ عن الرجال ما يعرفونه عن باطنهم؟

ـ يا غريب، لا يشغل المرأة معرفة الرجال، بقدر ما يشغلها ما يعرفه الرجال عنها، حتى ولو ترهبنت.

ـ حسنا، ولكن ما أحتاجه، هو أن أعرف ما تعرفه المرأة عن باطنها. فكيف السبيل إلى ذلك؟

أومأت الراهبة إيماءة تعجب، ثم مضت وهي تضرب كفًّا بكفّ، وتهز رأسها ساخرة، كمن يريد البوح بسر لن يفهمه أحد.

حدَّق الغريب وظله ببعضهما، ثم قال الظل:

ـ ولكن لماذا تترهبن النساء، وهل يمكن للأنثى حقا أن تتعفف عن أنوثتها؟

أجاب الغريب:

ـ أيها الأبله، ليس هذا ما يهمنا معرفته الآن، وإنما ما يجب علينا معرفته، هو ما تعرفه المرأة عن باطنها فحسب. وبذلك نستطيع أن نتعفف عنها.

ـ ولكن أعماق المرأة منيعة يا غريب، وهي لا تمنح مفتاح أسرار أنوثتها لأحد!

ـ أيها الظل، اقتل الخوف الذي في داخل المرأة وخذ منها ما تشاء، فلا ينال مفتاح مملكتها إلا من هو قادر على منحها الشعور بالأمان. أما نحن، فعلينا أن نتلقف ما أومأت به الراهبة، ومن المؤكد أن في قولها حكمة ما. فلكي نقهر شهوتنا تجاه المرأة ونكمل سعينا، علينا أن نغوص في كيانها، إلى أن نفهم ماهية الأنوثة بذاتها. وإني أحتاجك لأن تكون بجانبي وتعينني لكي نحلَّ ذلك اللغز.

ـ ولكن كيف لنا تحقيق ذلك يا غريب؟

ـ ما علينا سوى أن نتسلل إلى الساحة الخلفية لمضارب النساء، وهنالك نداهم المرأة عارية في عقر أنوثتها، فنكشفها على حقيقتها. إذ يبدو لي، أن طريق الحج إلى الحياة، لا بُدَّ أن يمرَّ عبر الحج إلى الأنوثة.

***

عند حلول الليل؛ حيث كان الظلام قد أسدل ستاره على الكون، وكان السكون قد أطبق على الكائنات، حمل الغريب فانوسه واصطحب ظله، ثم تسللا بين مضارب النساء، إلى أن بلغا الساحة الخلفية للأنوثة. وهنالك كانت المرأة جالسة تحيك من أحلامها سفرا، يأخذها إلى نجوم وأقمار بعيدة، ريثما يأتي من يشعل شموعها لتحتفل بأنوار أنوثتها.

همس الظل:

ـ هل ترى ما أرى؟ إنها عارية، أنوثة مجردة!

ـ نعم أيها الظل، لقد أصبح الأمر الآن أكثر وضوحا. فليطل كل منا عليها من جانب مختلف، حتى نستطيع رؤيتها بكليتها. ولكن انظر ما أجمل المرأة، أردف الغريب، إنها أشبه بحمامة بيضاء، كل ما فيها يشع بالحب والسلام.

ـ ولكن حذار يا غريب، فقد يطل من الحمامة البيضاء ثعبان أسود؛ ملمسه ناعم، ولكن في أنيابه السمّ الزعاف.

ـ لا عجب أيها الظل، ففي داخل كل امرأة أفعى نائمة، ولكن لا تستيقظ تلك الأفعى، إلا عندما تنام الرجولة في الرجال. إن الطبيعة في الحقيقة، هي التي زوَّدت المرأة بناب الأفعى، ولم

يتعفف الرجل عن ذلك الناب، إلا لأنه يمتلك القرون. ولذلك فإن من الحكمة ألا ننسى بأن لنا قرونا، فنتحسسها كلما تحدثنا عن ناب الأفعى.

ـ حسنا يا غريب. ولكن انظر، إنها ما تزال مقيدة. ويبدو أنها تأنس بالقيد، حتى ولو سلبها جزءا من حريتها!

ـ مهلا أيها الظل، فليس كل تقييد سلب؛ ذلك أن المرأة تأنس لنوع من القيد، كما يأنس ماء النهر لقيد المجرى، فيصبح القيد حرية لاندفاع الماء وتدفقه، أكثر من كونه تقييدا. وضمن هذا السياق فحسب، فإن المرأة قد تجد حريتها في القيد، أكثر مما تجدها في الإطلاق.

فإذا كانت المرأة هي الماء، فإن الرجل هو المجرى الذي يتوق الماء لحُضنه، و لينساب فيه ويأخذ شكله. أما إذا كان المجرى يفتقد الصلابة أو العمق والرحابة، ما لا يتسع لاحتواء غزارة الماء، فإن الماء سيتمرد على مجراه ويندفع خارجه. فإذا لم يعثر الماء على أي مجرى يحتويه، حينئذ تستيقظ الأفعى. ولكن مع ذلك، فإنه ليس من الحكمة أن نلوم الماء إذا ما فاض عن مجراه واندفع تائها متشتتا، أو أغرق في طريقه ما أغرق. بل علينا أن نلوم شُحّ المجرى.

فالأنوثة يا صاحبي، وجود هلامي يفتقد التماسك والتمايز، وهذا يعني أنها تفتقد الانتماء إلى الشكل الراسخ، وأن لديها القابلية للتماهي مع أي قالب لديه الكفاءة على احتضانها واحتوائها؛ لذلك فإن المرأة هي أقل تعصبا وتصلبا من الرجل، ما دام الأمر لا يمس عاطفتها. ومن ثم فإن هوية الأنوثة غالبا ما تكون فضفاضة مرنة، وقادرة على إعادة صياغة نفسها

بقوالب وأشكال جديدة، بكل أناقة وتهذيب؛ ذلك أنها أبجدية حيادية، حروف لا متناهية، تترقب اليد التي ترتبها، لكي تلد المعنى، من دون أن ينقصها المعنى، لأنها حبلى به. وسوء التفاهم بين الحروف، غالبا ما يكون سببه هو الرجل الخطأ. فالأنوثة هي بشرى كامنة، أو وحي صادق يتوق إلى نبي ما، لكي يتحقق. أو أنها رؤيا عذراء، على أن لا يتم تأويلها خطأ ممن يجهلون الوجه الباطن للحياة.

كان الظل يجلس متكئا على كفيه المشبوكتين وراء رأسه، يُحدِّق في المرأة ويصغي إلى ما يقوله الغريب. ثم ما لبث أن التفت نحو الغريب قائلا:

ـ في بعض قولك ما هو صواب يا غريب. فإذا أمكن تعريف الأنوثة بكلمة واحدة، فتلك الكلمة هي اللاحدود؛ ذلك أن الرجل كائن مسوَّر بفطرته، أما المرأة فلا سور لها سوى الرجل. لأن سريرة الرجل غالبا ما تكون ذات قوام ثابت، بحدود وبدايات ونهايات، أما النساء، فجميعهن دوائر.

وعلى الرغم من أن الأنوثة هي فريدة متميزة في ماهيتها، إلا أن هوية الأنثى هي أقرب إلى الحيادية من قربها إلى الانتماء. لأن انتماءها هو انتماء زئبقي، غير ثابت، وغير محدد الملامح، والأمر نفسه ينطبق على مفاهيمها تجاه الحياة والأشياء. وبذلك فهي أقرب إلى التعسف في مواقفها، من قربها إلى التعصب والتصلب، أو المرونة والاعتدال. وهي كذلك أكثر ميلا للتعميم مقارنة بالرجل، وأقل منه قدرة على إيجاد الأعذار للآخر، ولاسيما إذا كان رجل.

أما دينها، فهو ليس الحب كما يُشاع عنها، وإنما دينها هو العاطفة والانفعال؛ لأنها إن أحبت، فهي غالبا ما تحب بلا حدود، ولكنها إن كرهت، فكرهها كذلك لا يعرف الحدود. وما دامت تمارس وجودها بوجدان غير مؤطر، فهي تحب الرجل القادر على أن يكون إطارا لها وسورا لكيانها ووجدانها ومفاهيمها، ليؤطِرها ولو بقليل من القسوة. وبذلك، فقد يبدأ شعور المرأة بالحرية، عندما تجد نفسها قد وقعت في الأسر، ولكنها مع ذلك لا تحترم الرجل الذي يقع في أسرها.

ثم أن المرأة غالبا ما تشاحن الرجل للحصول على مساحات أوسع، ولكنها لا ترسم حدودها أبدا، بل تنتظر منه أن يفعل ذلك. فإذا تراجع هو خطوة، تقدمت هي خطوة، وكلما كان الرجل مطواعا لأن يتراجع أكثر، كلما فقدت المرأة ثقتها بالرجال والتجأت إلى تيهها الأبدي.

وهي في الحقيقة، قد تقارع وتشاكس وتتحدى، بحثا عن الهزيمة لا بحثا عن النصر؛ فإذا انهزمت المرأة أمام رجل عادل تحبه، فإنها تستعيد ثقتها بأنوثتها وبالرجال، وبذلك تتعزز ثقتها بالحياة.

وهي كذلك قد تحاول بغريزتها أن تضلِّل وتراوغ، فتجادل وتحاجج لإثبات أمر ما، هي أكثر الناس إدراكا لبطلانه وعدم صحته، مستعملة كل ما لديها من حيل وألاعيب لتدجين الرجل. فإذا نجحت، أدارت له ظهرها، أو جلست خائبة الأمل، تنظر إلى مُهرّج لم يفهم المغزى من اللعبة. أما إذا فشلت، فإنها تسلِم له كيانها بدون تحفظ، كالطفل الذي يرتمي على صدر أبويه، لينعم بالدفء والتفهم والأمان.

ـ ولكن ذلك سببه أيضا أيها الظل، أن المرأة تحب أن تختبر جدارة الرجل وأصالة معدنه، قبل أن تمنحه نفسها، بكل ما في نفسها؛ كونها تريده رجلا بحق، وليس مجرد ذكر، وتحتاجه كضرورة لاستساغة وجودها، أو حتى لاكتشاف ذلك الوجود.

ـ ولكن المأزق يا غريب، أن خيال المرأة مأسور بهالة الرجل الأسطورة، وهي لا تهادن إن وجدت فيه ضعفا. فإذا كانت واجهة الرجل مسكوبة من معدن صلب، فإن خلفية الإنسان فيه، قد تكون مصنوعة من ورق هش. والمرأة تعشق واجهة الرجل وتذوب في خشونتها، ولكنها إذا ما وجدت هشاشة في خلفيته، فإن نيرانها التي لا تعرف الرحمة ستكون بالمرصاد.

ـ ولكن لو اشترك الرجل مع المرأة في ضعفها، فكيف لها أن تقنع مهرة أنوثتها بأن تخضع إلا لفارس، ثم ما الذي يدفع شخصيتها لأن تسجد، وهي في أشد لحظاتها حميمية، إلا لرجل!

ـ ولكن ماذا عن شهوة الأنثى، التي تميل إلى الرجل الجسور الذي يكشفها أمام ذاتها، أكثر من ميلها إلى الرجل الذي يتغنى بجمال أقنعتها؟

ثم ماذا عن سريرتها التي لا تجد أمنها أو سلامها إلا مع الرجل، ولكنها مع ذلك لا تجد الأمن ولا السلام مع رجل مهادن مسالم؟

ـ أيها الظل، إن فضاء الأنوثة هو أشبه بسماء مفتوحة على جميع أنواع المناخ. أما إضاءة تلك السماء وكشف كواكبها ونجومها البعيدة، فذلك حكر على الرجال الذين يعرفون كيفية استحضار الطقس اللازم لإشعال البرق.

فالمرأة لا تبحث عن رجل مُدجَّن، يطرق باب قلبها بخفر. وإنما عن فارس يباغتها ويخطف قلبها من حيث لا تدري، ثم يذيب

بناره جميع شموعها؛ ليجعلها حُرَّة من قالبها وكيانها وإرادتها، منعتقة من مساحيقها وأقنعتها، هائمة كنحلة في فضاء من الرحيق.

فكيف لها أن تهادن مع رجل خانع يستسلم لها؟ ما دامت هي التواقة للاستسلام لسيف يستبيح دم شبقها، ولنار حامية تشعل عرسا من الأنوار في أقصى أركانها.

شهق الظل بأداء تمثيلي، ثم قال:

- يا لمازوشية الجرح الذي ينتشي بلقاء السكين!

- أيها الظل، إن كل ما في الأمر، أن الطبيعة قد جعلت المرأة نباتية، لكي تستطيع إغواء اللواحم. وإلا فإنها لن تجد ما تأكله ولا من يأكلها.

- بل يبدو لي يا غريب، أن الأنوثة المعافاة هي أشبه بجرح، يجد ذاته ومتنفسه في النزف. أما المرأة، فهي تشعر بأنه ينقصها شيء ما، وهي تستوحش بنقصها وتحب من يملأه بنفيه، من خلال إخضاعه. ولكن حتى ولو لم يترافق ذلك مع إخضاعها أو نفيها، فتلك هي المازوشية بعينها.

- ولكن ثمة أمرا لا بد من ذكره، لكي يتّسق المعنى؛ وهو أن مازوشية المرأة هي أشبه بمازوشية الوردة الندية البيضاء، التي تتوق ليد مسؤولة لكي تقطفها وتصونها، ولأنف ذوَّاق لكي يشتمَّ عطرها. أما إذا لم تحصل على الحب الذي يليق بمقامها، فإنها قد تشهر أشواكها، وكذلك لكي تحمي نفسها من الأيدي الطائشة الخرقاء، وبذلك تمارس الوجه الآخر من كيانها.

أيها الظل، إن وجدانية المرأة مركَّبة وذات عمق، وهذا ما يحار في فهمه الرجال. فإذا كانت الأنوثة في عين الرجل، بُعدا يقيسه بالمسافة، فإن الرجولة في عين الأنثى، حجم تقيسه بالمكيال؛ ولذلك فإن الرجل غالبا ما ينظر إلى وجدانية المرأة، من خلال عيون وجدانيته التي تفتقد العمق. وهذا ما قد يجعل المرأة تظن العكس، إلى أن يثبت لها العكس.

أعني أنه غالبا ما يرى المرء الآخرين من مرآة حاله، فيميل إلى التصديق بأن جميع الناس على شاكلته؛ فاللص لا يأمن لأحد، والكاذب لا يصدّق أحد، والغبي يعتبر نفسه كواحة في صحراء من الأغبياء. أما الشريف، فهو يثق بكل من حوله، والصادق يؤمن بأن الصدق هو القاعدة السائدة بين الناس. وكذلك فإن الشاعر يتوقع من جميع الناس، أن يكونوا ذوّاقين مرهفي الإحساس، والفيلسوف يعتقد بأن جلَّ البشر أذكياء لمَّاحين.

ولذلك، عندما تظن المرأة بأن الرجل يمتلك نفس عمق أحاسيسها وتفتح له الباب، فقد تتفاجأ بأنه لا يبتغي سوى الانزلاق بصبيانية على نعومة جسدها، بدلا من الدخول لإرضاء أعماقها.

قال الظل:

ـ ولكن إذا تعامل الرجل مع المرأة بأخلاق الرجال، فقد يخيب أمله كذلك.

أجاب الغريب:

ـ يبدو أن سبب تكاملنا هو الفرق ما بيننا؛ فللرجل العلو وللمرأة العمق. أما أجمل ما في الذكورة والأنوثة، فهو الفرق ما

بينهما، وكلما تقلص ذلك الفرق، كلما انحسر ذلك الجمال. وعلى الرغم من أن المرأة تنقص الرجل بعلو، ولكنها بالمقابل تزيده بعمق. ومع ذلك فإن المرأة هي أقرب لأن تشعر بنقصها وتتألم لأجله، لأن العمق للمرأة هو أشبه بالعقل الذي يشقي صاحبه. أما الرجل فهو غالبا، غير مدرك لنقصه، متباهٍ بعلوه.

ـ ولكن مع ذلك، حذارِ أن تتعامل مع المرأة بأخلاق الرجال يا غريب، كي لا يخيب أملك. وهذا لا يعني أن تحرمها من الحب، أو أن تخطئ بحقها، ولكن إن أخطأتَ فإياك أن تعتذر؛ ذلك أن الرجل إن انحنيت أمامه، فغالبا ما يبادل انحناءك بانحناء، ولكن إذا انحنيتَ أمام امرأة، فهي غالبا ما تستغل انحناءك، لكي تعتليك، ثم لن يعجبها بعد ذلك أي مكان آخر لتجثم فوقه سواك. أما إذا كنت شامخا أمامها، فإنها ستسدل لك سرج أنوثتها، ولسوف تنحني أمامك متوسّلة، لكي تعتليها.

ـ أيها الظل، إن المرأة هي ليست مصدر الحياة وحاضنها فحسب، بل أنها كذلك توأم الحياة، وهي لا ترحم الضعفاء الخانعين؛ فإن أنت ملتَ، مالتْ عليك، حتى أنها قد تكون سببا في تعجيل سقوطك. أما إذا كنت رجلا مسؤولا، ذا جَلد وهيبة وثبات، فإنها سوف تسلم كيانها لك وتصبح ملك يديك. ولذلك سيبقى الضعفاء يكيلون الشتائم واللعنات على المرأة وعلى الحياة. ولذلك أيضا، إذا أمكن تعريف الرجولة بكلمة واحدة، فتلك الكلمة هي المسؤولية.

فكلما كان الرجل مسؤولا، كلما اطمأنت المرأة وخلدت إلى أنوثتها. أما إذا لم يكن كذلك، فإنها سوف تستحضر رجلا من

داخلها، لتستبدله بذاك الذي تفقده، ولتستعين به للانتقام من جنس الرجال، الذين حرموها من أن تنعم بأنوثتها.

ثم ألم تكن أنت أيها الظل من أوعز لي بأن أكون رجلا، عندما أكون في حضرة النساء؟ وألم تكن أنت أيضا من أغواني وقادني إلى المرأة؟ فلماذا تتهكَّم وتتهجَّم عليها إذن؟ ولماذا لا تريد أن تدرك بأننا نحن أيضا لنا مواطن ضعفنا، وبأنه ليس من الأخلاق أن نُعرّي الآخرين!

أجاب الظل:

ـ كيف لا أعرّيها، وأنا الذي قدتك إليها بدافع الشهوة؟ والشهوة لا تتنفس أصلا إلا في مناخ خارج عن دائرة الأخلاق. وكذلك هل نسيت بأنني أنا الغريزي منك أيضا والفطري فيك؟ فلا بد لي من أن أتنفس في داخلك، لكي يخرج المستتر فيك إلى ساحة النور.

ثم ألم تكن أنت من رجاني لكي أكون بجانبك وأعينك لكي تعثر على مفتاح لغز الأنوثة، وطلبت مني كذلك بأن يُطلَّ كل منا على المرأة من جانب مختلف، لكي نستطيع رؤيتها بكليتها؟ فدعني أجهر بما أرى من الجانب الذي أطلّ منه عليها، لكي نتمكن من كشف خفاياها، بعيدا عن المداهنة والتملق لها، أو الغلو والإسراف في الثناء عليها، وكأنما هي مُجرَّد حمل وديع أو كائن بريء، فالبراءة ليست من شيمها. وتذكَّر بأنها هي التي تهوى غواية الرجل، ولكن عندما يتحقق لها ما تريد، فقد تصبح هوايتها العبث فيه. أو أنها قد تحاول بكل ما أوتيت من دهاء لكي تجذب الرجل نحوها، وعندما يأتيها لاهثا، قد

تنتشي بصده، ثم تتقمص دور الضحية التي يطاردها الرجال، ولا يتركونها تنعم بالسلام.

ـ ولا هي مذنبة أيها الظل، فهي تحاول ترتيب أبجدية انوثتها بنفسها فحسب. وهذا ما يصعب على الرجل قراءته غالبا.

فالمرأة تغوي الرجل، لكي تردم من خلال جذبه، الخواء الذي في داخلها، وبذلك تحقق أمنها؛ ذلك أن قدرة الأنثى على جذب الرجل، هي بمثابة المصادقة على وجودها، وكأن لسان حالها يقول: "أنا جميلة، إذن أنا موجودة"

ـ إذن، فالخيوط التي تنسج بها المرأة أمنها الداخلي، هي خيوط مسحوبة من منوال الرجل. أما آلية النسج، فهي مُقتبسة من الشيطان، ومع ذلك فهو نسيج هش!

ـ ولكن لا تنسَ بأن منبع الأمن الداخلي الأول للإنسان هو الأم، والأم امرأة. فخير للمرء أن يكون له وجود قاسٍ وأم حنون، من أن يكون له وجود حنون وأم قاسية.

أما العبث، فهي تعبث به عندما يكون الرجل عاجزا عن الغوص في أعماقها، ليفهم تعقيدات عالمها. أو أنه يكون غير قادر على الدخول في سراديبها، ليرى صورته التي رسمتها له في داخلها، وليتطابق معها كما تشتهيه هي، كإلهٍ متجلٍ على هيئة رجل. فتسعى المرأة لأن تنتقم لخيبة رجائها من الرجل، بالعبث فيه.

وأما عن سبب نشوتها بصد الرجل بعد جذبه. فذلك هو أحيانا جزء من تركيبة مزاج الأنثى، التي تريد أن تثبت لنفسها بأنها قادرة على بناء حصن منيع حول كيانها، لا يستطيع الرجل أن يكسره عنوة بدون التآمر معها. وذلك ما يمنحها الشعور

بالأمان، بأن لديها الوسيلة والقدرة على صدّ وإبعاد شبح كامن في لاشعورها، يتمثل على هيئة رجل يترصد لها لكي يغتصبها. فتبادر هي لجذب الرجل وسحقه، قبل أن يتجلى شبحه فجأة ويباغتها كواقع ما في حياتها.

ذلك أنه عندما يغتصب رجل امرأة أيها الظل، يكون في الحقيقة قد هشّم عالمها كله. ومن أحد أسباب ذلك، أنه يكون قد سلبها حقها في أن ترفض وتتمنع؛ لأن التمنع هو من أحد مفاتيح أمن الأنوثة، وسلب الأنثى لذلك المفتاح، يعني حرمانها من العودة إلى حصنها، الذي تجد في دخوله أمنها، وبذلك فإن اغتصاب امرأة، يسلبها فيما يسلبها، الآلية التي تصنع بها أمنها. فهي لن تتجرأ بعد ذلك على ردم الخواء الذي في داخلها من خلال جذب الرجل، لأنها تكون قد فقدت الثقة بوسائلها ودفاعاتها لكبح ذلك الرجل ولجمه، إن هو تمادى واقتحم كيانها عنوة، وهكذا فهي تشعر بأنها قد أصبحت رخيصة ذليلة مباحة. ولذلك فهي عادة ما تحصل على عكس ذلك الشعور، عندما تنجح في اختبار قدرتها على سحب الرجل ودفعه؛ من خلال إغوائه وصده. وهذان القطبان، منفصلان أو مجتمعان، هما من أهم الركائز التي يستند عليها أمن الأنوثة.

ما أن أنهى الغريب كلامه، حتى انفجر الظل بضحكة مفتعلة، أتبعها بتنهيدة طويلة، ثم راح يحملق في الغريب قائلا:

- إذن ما على الرجل سوى أن يقبل بدور الدمية التي تعبث بها المرأة لكي تحقق أمنها. ثم عليه مع ذلك، أن يكون مجتهدا لإيجاد الأعذار والمبررات لعربدتها!

ـ ليس هذا ما عنيته أيها الظل. ذلك أن محاولة تقصّي الأسباب لردة فعل ما، تعني محاولة فهم الدافع الكامن وراءه. ليس بالضرورة من أجل التسليم بمشروعيته أو عدم مشروعيته، تبعا لوجهة نظر فريق ما، وإنما بغية التأكيد على مشروعيته كوجود. كون كل موجود له سبب لأن يوجد، وبالتالي فهو مشروع الوجود؛ سواء كان مطرا أو نسمة عليلة أم كان زلزالا أو بركانا. ثم أن فهم الآخر هو ضرورة للتعايش معه، ما دام ليس هناك بديل عن ذلك الآخر، الذي قد يكون المرأة أو الطبيعة أو الحياة. أما نحن، فهل نسيت بأننا موجودان هنا من أجل فهم ماهية الأنوثة.

ـ لم أنسَ يا غريب، وإنما عليك أن تدرك أنت، بأن ثمة لعبتين ليس للأنوثة شغف حقيقي بهما؛ وهما الأخلاق والمنطق. فقد تمتلك المرأة رقة الطفل ونعومته، ولكنها مثله لا تعرف الانضباط أو التوازن. ذلك أن الأنوثة تبقى طفولة غير قابلة للنضج، فلا تثق بأخلاق المرأة أو حكمتها، حتى ولو تألّهت.

أجاب الغريب:

ـ ولكن بالمقابل، ثمة خصلتان ليس للذكورة باع حقيقي بهما؛ وهما العمق والعطاء. أما عن الطفولة، فالذكورة أيضا في جانبها الوجداني، تبقى طفولة غير قابلة للنضج. لأن الأنثى منذ نعومة أظفارها، هي أكثر إدراكا وفهما لمغزى وعمق اللعبة الوجدانية من الذكر. أما الذكر، فهو يبقى أقرب إلى الطفولة والسذاجة في مشاعره وأحاسيسه؛ فإذا نضج تخنث.

قال الظل:

- ولكن يكفي الرجل بأنه أكثر عقلانية وتوازنا ووضوحا؛ فإذا أراد الرجل شيئا، يتجه نحوه، أما المرأة، فتدور حوله. ذلك أن الذكورة هي مُباشَرة، مُبادَرة، أصالة، ثقة، سعي دائم للنفوذ إلى الحقيقة. أما الأنوثة، فهي موارَبة، مراوَغة، تضليل، تردد، ترقب، انتظار. ولذلك فإن الرجل عندما يتطلع إلى هدف ما، فإن إحداثيات هدفه غالبا ما تكون ثابتة ومحددة وصارمة. أما إحداثيات هدف المرأة، فهي غالبا ما تكون هلامية ومائعة وتفتقد الثبات والحزم والوضوح. وكذلك هي إحداثيات مضطربة ومتقلبة، تبعا لاضطراب مزاج المرأة وتقلّب أفكارها. فإذا استثنينا المؤامرات والدسائس، فإن المسافة ما بين المرأة وهدفها قد تبقى ثابتة في بعض الأحيان، أو أنها على الأقل تبقى مسافة قائمة، على الرغم من فداحة الجهد الذي تبذله المرأة لبلوغ ذلك الهدف؛ فإذا كان هنالك خلل ما، وكان المطلوب تحديد ماهية ذلك الخلل، ومن ثم إيجاد الحل، فمن الحكمة تسليم تلك المهمة لرجل.

أما سلوك المرأة، فهو يفتقد غالبا إلى المنطق، وقد لا يستطيع أحد تعليل بعض ردات فعلها عبر منطق ما، لأن المنطق هو ليس الأرضية التي تتحرك عليها أفكار المرأة، بل أن أفكارها غالبا ما تتحرك على أرض لزجة زلقة، ولذلك فهي تبقى عاجزة عن النهوض بفكرة شاملة ومتوازنة.

فلو منحنا مثلا، لفريق خالص من الرجال، وسائلا وأدواتٍ للبناء. فإنهم سيجدون طريقة ما، للتفاهم مع قوانين الطبيعة، بغية تشييد أو ابتكار بنيان له غاية ما؛ قد يكون منزلا أو معبدا أو هرما أو برجا، أو ربما سجنا.

أما لو منحنا لفريق خالص من النساء، ما تم منحه للرجال. فإنهن سيتعاملن مع قوانين الطبيعة من خلال رموز ومعايير أنوثتهن؛ كالزينة والتبرّج والغنج، أو المواربة والمراوغة، أو الترقب والانتظار. ولكن قوانين الطبيعة ليست رجل!

ولذلك فإنهن لن يفلحن في تشييد أي بنيان متكامل، يمتلك ما فيه الكفاية من الفائدة أو المعنى. حتى ولو أنشأن الكثير من الأعمدة والعتبات والجدران المتفرقة، وأتقنَّ تزيينها وزخرفتها. ولهذا السبب، فلا بأس في أن تكمل المرأة ما يبدأه الرجل، وليس العكس.

وعلى الرغم من أن الأنثى قد تكون أكثر قدرة على المناورة وأكثر حنكة من الرجل، عندما يتعلق الأمر بالتفاصيل، وعلى الرغم من أنها كذلك تعي الحياة قبله، وتسبقه في الإطلال على خفاياها وتفاصيلها. إلا أنها تكبر وتبقى مأخوذة بالتفاصيل، وتبقى الرؤية الشاملة تنقصها؛ وبذلك فهي تبقى مشغولة بالجزئيات، دون القدرة للإطلال على الكل.

ومن ثم، فإن الرجل يرصد العالم بعيون صيَّاد، وهو غالبا ما يعرف ويتتبع ما يريد. بعكس المرأة التي تبقى رؤيتها محكومة بنظرة الفريسة وحدسها، والتي غالبا ما يكون شاغلها هو اتقاء شرّ الصيَّاد، أو إغوائه لجذبه، أو الاثنين معا. ولذلك فهي تميل إلى السلبية في إطلالتها على حقائق الأشياء، وكذلك تجنح إلى التلقي والكمون، في محاكمتها لثوابت الوجود. أما الرجل فهو أشبه بفضاء كلي شامل، يطل من ذاته على ذاته، ولا يحجب ما يملك؛ فقد يمنح الدفء، وقد يجود بالغيث، ولكنه قد يرسل الصواعق أحيانا.

ـ ولكن تذكر أيها الظل، بأن المرأة هي أقل تماسكا مع مركز وجودها مقارنة بالرجل؛ لأن مركز وجودها موجود في رهافة أحاسيس قلبها، وليس في عضو زائد عن جسدها، ما دامت هي الموجودة لكي تحتضن الحياة برأفة وحب في داخلها، ومن ثم في أحضانها. وبذلك فهي تبقى أقرب إلى جوهر الحياة من الرجل، وتنتمي إلى الجانب الأكثر عمقا وإشراقا من الحياة، التي ينتمي الرجل إلى الجانب الآخر منها. ولكن مع ذلك فهناك نساء كثيرات، هُنَّ أكثر حكمة وحصافة وفطنة من الكثيرين ممن يتباهون بذكورتهم.

تمتم الظل قائلا:

ـ للرجل قلب وعقل، وكذلك للمرأة قلب وقلب؛ قلب عامر بالحب والحنان، وآخر مليء بالشر والقسوة. وبذلك فإن وجودها يبقى متأرجحا ما بين القلبين، كرقاص ساعة لا يستقر على حال.

أجاب الغريب:

ـ إذا كان للرجل قلب وعقل، فإن للمرأة قلبين وعقل. ولذلك فهي تثق بقلبها وتستلهمه قبل عقلها، ما دامت كفة قلبها هي الراجحة في ميزان وجودها.

ـ يا غريب، إن إنصاف المرأة يبدأ من خلال فهمها، كشرط لازم لمنحها الحب اللائق بها، لا من كيل الثناء والمديح الأبله عليها.

ثم أن الرجال الذين يمدحون المرأة بدون قيد أو شرط، هم في الحقيقة لا يمدحون سوى شهوتهم تجاهها، أو أنهم يتسوَّلون رضا من حولهم من النساء؛ سعيا منهم لملئ فراغ حنينهم اتجاه

المرأة، أو لملئ فراغ خوفهم من سخطها، ونادرا ما يكون دافعهم هو حب المرأة لذاتها.

أما من خبر النساء وهو متحرّر من الرغبة والخوف، فهو يعرف بأنهن عاهرات وقديسات في آن؛ لأن العُهر مؤنث، حتى ولو اتصف به بعض الرجال، أما القداسة فهي حكر على النساء اللواتي يحملن عبء أنوثتهنَّ بصمت، ويحتضنَّ الحياة في أحشائهن، ويَلدن ويُرضعن ويسهرنَّ الليالي بصمت. ويعرف أيضا بأن سريرة المرأة هي مرآة لتضاريس وصِفات جسدها، بما فيه من تقعّر وبروز، أو نقاء ودنس. وبأن في داخل كل امرأة قطة جائعة، زادها وماؤها المداعبة والحنان؛ فاعتنِ بالقطة جيدا، ولكن لا تنسَ أن تقلّم أظافرها.

وعلى الرغم من أن الرأفة بالمرأة ومنحها الحب، هما من معايير الرجولة الحقة. ولكن مع ذلك، لا تمنحها من الحب والثناء أكثر مما تحتمل، ولا ترأف بها إلى الدرجة التي تجعلها تحتقرك، أو تتقيأ ما منحْتها إياه من الحب؛ لأن المبالغة في اللين هي إهانة للأنوثة، شأنها شأن المبالغة في القسوة. فلا بأس في أن يقسو الرجل على المرأة، ولو قليلا؛ ليس إرضاء لأنانيته، وإنما لإشباع الجانب المازوشي فيها. فإذا عجز الرجل عن إشباع ذلك الجانب، فإنه سيتركها بعيدة عن التَّماس مع أعماق أنوثتها ومع كيانها كامرأة؛ ذلك أن في أعماق المرأة توقا لسلطة رجل، تتناغم من خلاله مع عالمها، فإذا حُرمت من ذلك التناغم، تشوَّهت وتسلَّطت على من حولها. ولذلك فإن أقبح النساء وأكثرهنَّ حقدا على الرجل، هُنَّ اللواتي لم يعرفن أبدا كَنَف سلطة الرجل.

ثم أن المرأة يا غريب، تحب أن تأخذ عنوة، في لحظاتها الحميمة مع الرجل الذي تشتهي. فعلى الرغم من أن أسوأ كابوس يمكن أن تتخيله المرأة، هو أن يباغتها رجل ويقوم باغتصابها. ولكن مع ذلك، فإن ذلك الكابوس نفسه، لو تم تشذيب أشواكه، فإنه قد يصبح من أكثر ما يلهب خيال المرأة ويُحفّز شهوتها؛ وذلك بأن تتخيَّل رجلا ما، يأخذها عنوة في السرير ويكسر ممانعتها له، شريطة أن يكون لخيالها السلطان على صياغة تفاصيل ذلك المشهد، وأن يكون لها الحرية في رسم ملامح ذلك الرجل، ومدى سَطوته عليها. وذلك الضرب من الخيال قد يدفع ببعض النساء إلى أقصى درجات الهيام، أما الشعور بالأمان أثناء ذلك، فهو الفضاء الذي يحتضن ذلك الهيام؛ فإذا شعرت المرأة بالأمان، اتجاه رجل ترغبه بشغف ورضخت له بكليتها، لكي يسلبها إرادتها وحريتها في السرير، تكون قد حصلت على هامش لذيذ من الحرية في جميع الأماكن الأخرى.

مع أن مازوشية المرأة في الحقيقة، هي أوسع من حدود السرير؛ ذلك أن المرأة قد تنتشي عندما يمنحها الرجل قبلة أو وردة أو كلمة حب، ولكن الأنثى في داخلها، تحصل على نشوة من نوع مختلف، عندما يخاطبها الرجل بكلمة أمر. فلكي يظفر الرجل بقلب المرأة كاملا، عليه أن يكون سخيّا بحبه ودفئه وماله وعبق رجولته. ولكن مع ذلك، حبذا أن يكون ديكتاتورا.

قال الغريب ممازحا:

ـ أظن أن ذلك الرجل السخي سيثير شهوة الكثيرات من النساء، وقد يوافقنك الرأي. ولكنهن سيتساءلن بسخرية، وهن يتمايلن قائلات: "ولكن أين هو ذلك الرجل؟"

ـ لو كان للمرأة باع بالأخلاق، لكان الرجل أكثر قربا من المرأة، وأكثر سخاء بحبه لها. ولكن المرأة بفطرتها، لا تميل إلى اعتناق أي مذهب أخلاقي، ولا تعترف بأي خارطة للأخلاق. وعوضا عن ذلك، فإن لها خارطتها التي تدلّها إلى أقرب الطرق التي توصلها إلى نيل الحب والشعور بالأمان، أو نيل النشوة بالانتقام. ولذلك فهي لا تتوانى عن الغش والخداع والتضليل، بسريرة طيبة وقلب مطمَئن، ما دام ذلك يقرِّبها إلى ما تبحث عنه. وكذلك فإن لديها ميلا فطريا قويا للكذب، بمجرَّد تعرضها لضغط خفيف، أو حتى في غياب ذلك الضغط، لمجرَّد اللهو والتسلية.

ـ ولكن هناك رجالا كثيرين يلجأون إلى الكذب لتدبير شؤون حياتهم، بل أن السواد الأعظم من الرجال يكذبون لدرجة ما، ويتعايشون مع الكذب بضمير راضٍ لا تشوبه شائبة.

ـ يا غريب، إذا كان الكذب لدى الرجل هواية، فإنه لدى المرأة احتراف؛ ذلك أن لها مع الكذب طقوسا ودموعا وإصرارا وجانبا ناعما وإغراء، حتى يرقّ لها قلوب أعتى الرجال ويثقون بها، مع أنها تكذب. فإذا أمسكتَ عليها مَمْسكا من أقوالها، تجدها تقلب القول وتحدِّثك عن سوء تفاهم. وإذا كاشفتها بدليل يثبت كذبها، فإنها تباغتك بدموعها، وتجتاح نقطة الضعف في ذكورتك، من خلال رقّتها وضعفها. وإذا حاولت نزع

أقنعتها، فما أن تفرغ من نزع آخر قناع، حتى يتوجب عليك البدء من جديد.

- اسمع أيها الظل. بما أن جسد المرأة هو صلة الوصل ما بين العدم والوجود، فهذا يعني أنه عالم من الخلق، يحتوي في داخله على متطلبات وأسباب احتضان ومنح الحياة؛ أي أن فيه من الكفاية والغنى، ما يجعله أشبه بعالم متكامل أو كون مُصغَّر. وهذا ما يُبرّر للمرأة، بأن تختصر حدود الكون بحدود جسدها، فلا تشقي نفسها بأي حقيقة خارجة عن حدود ذلك الجسد، الذي يحتوي على ما يكفي من التنوّع والشمول، لكي تركن المرأة إليه، وتجد فيه من الحقائق ما يقنعها ويرضيها، ومن المهام والواجبات ما يكفيها. وهذا ما يفسر سبب انشغالها بمتطلبات جسدها، وبتقلبات هرموناته وتحولات فصوله، أكثر من انشغالها بالانتماء الفعلي لأي مفهوم خارج عنه؛ كالدين أو الأخلاق أو المنطق، الذي كان من وضع أسسهم أصلا، هم من الرجال.

أما الكذب، فهو صفة يشترك فيها معظم البشر بدرجات متفاوتة، رجالا كانوا أم نساء. حيث يلجأون إلى الكذب لكي يتمكّنوا من عبور منعطفات ضيقة، لبلوغ ما يصبون إليه. فإذا كانت المرأة هي أكثر جنوحا للكذب من الرجل، فلها عذرها؛ وذلك لأنها تشعر بأنها محاصَرة من الطبيعة والأعراف والرجال، فتلجأ إلى الكذب كمتنفس وكوسيلة للالتفاف على من يحاصرها ويستبدّ بها.

أجاب الظل:

- عندما يتعلق الأمر بكذب المرأة ومراوغتها، فإني أرى المسألة بشكل مختلف؛ تبعا للجانب الذي أطلُّ منه عليها.

إذ يبدو لي، أن الصدق هو نوع من التمايز، أو أنه انعكاس لواقع مُحدَّد مُتعيّن. ولكن الأنوثة بماهيتها لا تعرف التعيّن أو التمايز. وبذلك فهي لا تستطيع أن تعكس نفسها في حدود واقع مُتعيّن متمايز، وذلك بسبب اختلافها عنه بالماهية.

فعندما تراوغ المرأة وتوارب وتلجأ إلى تغيير أقنعتها، هي في الحقيقة لا تغيّر سوى وجوه صادقة، لأن وجهها الحقيقي يفتقد أصلا إلى الثبات والتحديد، وبالتالي فهو غير موجود. وبذلك فإن المرأة لا تفتعل المراوغة والتضليل، لأن تلك المفردات هي انعكاس لطبيعة ماهيتها، وتعبير أصيل عن دخيلتها؛ فإن هي صدقت، تجدها تفتعل الصدق، إما إذا كذبت فهي تكذب بصدق نابع من طبيعة جوهرها، الذي لا نستطيع أن ننفي عنه صفة الأصالة على أي حال.

ـ حسنا أيها الظل، فلنبحث إذن في مفهوم أصالة الجوهر، كونه أقرب إلى التجريد، من قربه إلى التعيّن والتحديد.

في الحقيقة أن إحساس المرأة بعالمها الداخلي، أكثر أصالة وصدقا مقارنة بالرجل، وهي أكثر إدراكا لذلك الإحساس. لذلك فهي لا تستطيع أن تخدع وجدانيتها، التي غالبا ما تمنحها وحيا داخليا صارما في صدقه، تجاه من تهوى وما تهوى.

ثم أن أحاسيس الرجل، غالبا ما تكون مُقولبة في قوالب جامدة تفتقد السلاسة، أما المرأة فأحاسيسها أكثر انسيابا وحرية وتجريدا. وهي كذلك الأكثر التصاقا بماهية أحاسيسها المحضة، المجرّدة من عبء التعين ومن صفات الكم والكيف.

قال الظل:

ـ ولكن سُموّ إحساسات المرأة لا يعني بالضرورة سُموّ أخلاقها، كما أنه لا يضيف أي قيمة حقيقية إلى تلك الأخلاق.

ـ ولكن ما الأخلاق أيها الظل؟ ومن هو الذي وضع معيارها؟ ألم يكن الرجل هو الذي رسم خارطتها تبعا لنقاط قوته؟

فماذا إذن عن الاغتصاب والقتل وشن الحروب ونشر الدمار والتسلط على الجنس الأضعف؟ أليست تلك الصفات هي غالبا حكرا على الذكور؟ فأين الأخلاق من كل هذا؟

أجاب الظل بابتسامة ماكرة:

ـ لو كان للمرأة أدوات الرجال وسلطانهم، لتجاوزتهم في استبدادها وطغيانها. فاحذر المازوشي إذا حكم، لأن ساديته حينئذ ستكون بلا حدود. ولكم أخشى أن يكون ما بين المازوشية والأخلاق برزخ، فلا يلتقيان. أما المازوشية والحكمة، فأخشى أن يكونا أشبه بالزيت والماء، فلا يتجانسان أبدا، ولا حتى بفعل المزج. ولذلك فإن كل مازوشي لا يخلو من الخسة والتناقض.

فإذا تحولت المرأة عن مازوشيتها، صارت كالغمد الذي ينتمي إلى جانبه المُدبَّب، فلا هو بالغمد ولا هو بالسيف، ولكنها مع ذلك تبقى مازوشية بالتكوين، مهما فعلت.

ولطالما كانت المازوشية هي من أكثر خصائص الأنوثة السويَّة أصالة، فإني أكاد أجرؤ على القول: بأن كل امرأة سويَّة هي كائن مازوشي، وأن كل كائن مازوشي هو كائن غير سويّ.

ـ ولكن ذلك يعني أنه لن يكون هناك بشر أسوياء أبدا. فماذا عن سادية الرجال؟ وكيف لها أن تنسجم مع الأخلاق؟ ما دام كل سادي لا يخلو من العدوانية والأنانية!

فإذا كانت المازوشية خللا في الإنسان وأمرا غير سويّ، فلا شك بأن السادية هي أيضا كذلك، وإلا فما الذي جعل الساديين يحتكرون صفة كونهم أسوياء؟

أجاب الظل:

ـ ولذلك لا تثق بأخلاق الديوك عندما يكون بينهم دجاجة واحدة، ولا بحكمة الدجاجات عندما لا يكون بينهم أي ديك؛ ذلك أن أخلاق الرجل لا تنبع بالضرورة من ساديته، وإنما من لامازوشيته. حتى ولو كان لحكمته وتميزه بالمنطق صلة ما بجذوره السادية.

أعني أيها الغريب، بما أن جسد المرأة ينقصه شيء ما، فهي تفتقد الآلية التي تمكّنها من إفراغ شحنة سادية من وجدانها، كامنة بالفطرة في كل كائن ذي وجدان. ولذلك فهي تعوّض ذلك النقص، من خلال إفراغ تلك الشحنة عبر بدائل سادية غير وجدانية.

فهوية الرجل السويّ في أحد جوانبها، هي هوية سادية ذات جذور وجدانية؛ أي أنها سادية مرتبطة أساسا بلذة وجدانية أو برغبة مفعمة بالعاطفة، تجد متنفسها في اعتلاء جسد المرأة وخرقه، بما يعنيه ذلك للمرأة من متعة مازوشية تتمثل بنوع من الألم والرضوخ وتسليم الذات. وهذا ما يؤجج الرغبة السادية لدى الرجل، إلى أن يبلغ ذروة، فينتشي ثم يستكين. وبذلك فإن فضاء سادية الرجل غالبا ما يكون مؤطرا بعاطفته، ومهما تأججت ساديته أو تمادت، فإنها تخبو وتنطفئ؛ أي أنها سادية منطقية وذات حدود، ما دام لها ذروة مُحدَّدة.

أما هوية المرأة فهي هوية مزدوجة؛ هوية مازوشية، تتبع للوجدان والعاطفة والحدود، وهوية سادية، بلا وجدان أو منطق أو حدود، كونها غير مؤطرة بعاطفة أو نشوة أو ذروة، وبذلك فليس هناك سبيل لإشباعها.

وهكذا يمكننا أن نتجرأً على القول: بأن من يمتلك الأداة الجسدية التي تمكّنه من ممارسة ساديته بشكل وجداني، هو كائن ذو سادية مؤطرة، بإطار يمتدُّ ليشمل كيانه قاطبة ومجالات حياته كافة. أعني أيها الغريب؛ إن ما تدعوه أنت بعضو زائد عن الجسد، هو في الحقيقة بمثابة إطار نفسي، يمنح الإنسانَ الحكمة والاتزان والحدود على كافة الأصعدة.

وعلى أية حال، فهذا لا يعني أن تحرم المرأة من الحب والدعم والتفهم، ولكن إياك أن تمنحها السلطة؛ ذلك أن السلطة غالبا ما تنقلب بيد المرأة إلى تسلّط. ثم أن مازوشية الوردة الندية البيضاء لها حدود، ولكن سادية أشواكها بلا حدود. أما قلب المرأة، فعلى الرغم من أن فيه مساحات للحب بلا نهاية. ولكن مع ذلك، إن ساورته الكراهية، فليس فيه الكثير من المكان للرحمة.

ولذلك، إذا أردت أن تدفن نجوم سماء امرأة في التراب، فما عليك سوى أن تحرمها من حب الرجل ومن أسباب انجذابه لها. أما إذا أردت فعل الشيء نفسه بالرجل، فما عليك سوى أن تسلّط عليه امرأة.

قال الغريب:

ـ على الرغم من أن الحب والكراهية هما نقيضان، ولكنهما مع ذلك ينتميان إلى خامة واحدة هي العاطفة. والعاطفة هي

كنز المرأة الذي تحيا بهِ ولهُ، ولذلك يجب على خزائنها أن تكون مملوءة به دائما، وتلك الخزائن فيها متَّسع بلا حدود. ثم أن المرأة لا تنقصها الأدوات اللازمة للدفاع عن كنزها، ولا الآلية لملأ خزائنها إذا ما خويت.

وهي تسعى بطبيعة الحال لملئ خزائنها بالحب، وتلك بديهية؛ لأن الحب يمنح الإنسان التناغم والطمأنينة والسلام. فإذا امتلكت حبا غامرا، آمنا، حاميا لها، وتيقنت بأنه لن ينازعها عليه أحد. فعلى الأرجح أنها لن تبدله بشيء، ولن تحلّ محلّه شيء، ولن تلوي بعده على شيء. ولكن كلما نقصها الحب، أو فقدت الثقة بنيله أو الإحساس بطعمه، كلما امتلأت خزائنها بنقيض ما فقدت. ونقيض الحب لمن رصد حياته للحب، يمنح صاحبه اليأس والقنوط، ورغبة بالانتقام بلا عاطفة أو حدود أو هدف.

وهكذا فإن سادية المرأة مثل المرأة نفسها، هي أقرب إلى ردة الفعل من قربها إلى الفعل. أما سادية الرجل، فهي فعل محض ونظام حياة، حتى ولو تأطرت.

أما عن تناقض منطق المرأة مع منطق الرجل في بعض الجوانب؛ فذلك لأن الأنثى ببساطة، قد تحتاج أحيانا، إلى منحها عكس الشيء، لكي تحصل منه هي على الشيء ذاته، كما الماء الذي يجد حريته واندفاعه في قيد المجرى. هكذا هي وجدانية الأنثى، فقد يُبرّعم في البرد دفؤها، وهذا شذوذ بمنطق الذكورة، ولكنه ليس شذوذا بذاته. فالأنوثة هي ليست نفيا لكي تكون الذكورة هي الإثبات.

ـ حسنا يا غريب، ولكن أتدري لو اجتمع جميع ذكور الأرض وأقسموا للمرأة بأنها كائن كامل ولا ينقصها شيء، ولو منحوها السلطان على الكون والكائنات، لما أفلحوا في محو شعورها بالدونية اتجاه الرجل؛ وذلك لأنها تتبع حدسها. ثم أنها في الحقيقة تحتاج إلى ذلك النوع من الإحساس بالدونية، كجزء من مازوشية وجدانها، التي تحكم لحظاتها الحميمة مع الرجل. ولكن ذلك الشعور بالدونية، هو السبب أيضا وراء سعيها للتسلِّط على من يخفضون جناحهم لها من الذكور. وعلى الرغم من أن المرأة تحاول أن تعتلي الرجل، ولكنها لا تجد سكينتها إلا مع الرجل الذي يعتليها.

ولذلك فإن الدجاجات الثائرات، غالبا ما يبحثن عن الديك المتحضر الذي يتغنى بكرامتهن ويثق بهن ويمنحهن السلطة، لا ليشكرنَّه وإنما لينتفنَّ ريشه تشفيا من الذكورة. فلا تكن ذلك الديك يا غريب، لطالما كنَّ هنَّ التواقات للأخذ بثأر لاذكورتهن من الذكر، كلما واتتهن الفرصة. إذ غالبا ما يكون الذكر في عيونهن كائنا متهما بذكورته، إلى أن يحاول إثبات براءته بالضد، وهنا تكمن إدانته الحقة.

فلا تطلب صك براءة من أي امرأة، ولا تهادن في ذكورتك ولا في رجولتك، لأن المرأة لا تحترم فيك سواهما. ثم إذا كان للمرأة ثأر، فثأرها مع الطبيعة، وليس هناك من يستطيع الأخذ بثأرها وإنصاف أنوثتها، سوى ذكر فحل.

أما عن كرامة المرأة يا غريب، فتقتضي الرجولة بوضعها بمرتبة كرامة الزهور والرياحين. ولكن تبقى ثمة معضلة مفادها: ما هو المناخ المناسب لكرامة المرأة؟

ذلك أن كرامة المرأة هي أشبه بجوهرة من جليد؛ فإن أنت سرت بها إلى مناخ معتدل، أذبتها فظلمتها. وإن أنت سرت معها إلى مناخ بارد يحفظها، ظلمت نفسك وظلمتها كذلك، لأنك سوف تتجمد من البرد، ثم تشقى المرأة بك، لأنك ستصبح في عينها رخو الرجولة سهل الانقياد. فلا أحد يعرف بالضبط، ما هو المناخ الملائم لكرامة المرأة، ربما ولا حتى هي. أما أكثر ما تحبه المرأة في السرير، فهو المناخ المعتدل.

ـ أيها الظل، من الحصافة أن يدرك الرجل، بأن في داخل كل امرأة امرأتين: المرأة الإنسانة والمرأة الأنثى.

فالأولى لا تشعر بالراحة والأمان، إلا مع رجل مُتحضِّر. أما الثانية فتبحث خلسة عن رجل فطري.

إن من أكثر ما يعيق سعادة الأولى، هو عدم احترام الرجل لكرامتها. أما أكثر ما يُقوِّض سعادة الثانية، فهو الرجل الذي يغالي في احترام تلك الكرامة نفسها. والرجل الحق، هو الرجل القادر على إرضاء ما بداخل الاثنتين معا، تبعا لأي امرأة منهن يلتقي، ضمن المرأة الواحدة.

إن دخيلة المرأة أيها الظل فيها من التعقيد والتشابك، ما قد يفاجئ المرأة نفسها. ولذلك فهي تحتاج الرجل الذي يستوعبها بكليتها، وتنتظر منه أن يَفهمها و يُفهمها طبيعة ومشروعية ما يدور في داخلها. ما دامت المرأة هي أشبه بزهرة مقامها العبير، فهي تميل لأن تجد بوحها من خلال الأنف الذي يشتمُّها، لا من خلال الأنف الذي يتوقع أن تشتمَّهُ هي. وفي إطار هذا التشبيه فحسب، فإن المرأة تحب من يحبها، أكثر من حبها لمن تحبه.

ذلك أن الرجل أيها الظل، قد يبتاع شهوته من بائعات الهوى. أما المرأة فمن يبيعها أمانا وتفهما وإحساسا دافئا، إلا من خلال الحب! لطالما كانت هي تبحث عن رجل لتُسلِمه نفسها، لا عن رجل يُسلِمها نفسه؛ إن شهوتها في الحقيقة لا تشترى، لأنها تبيع شهوتها إن اشترتها.

ثم أنه غالبا ما تكون الشهوة هي العتبة الثانية التي ترتقيها المرأة نحو الرجل الذي تشتهي، بعد أن تشعر بأنه رجل كُفْؤ، وقادر على منحها التفهم والشعور بالأمان. فإذا أحبت منحت وجودها كله لمن تحب.

أما الرجل، فهو أشبه بثور هائج، لا عتبات له سوى الشهوة، يجيد النطح والهرب، ولا ينقصه الميل، لأن يترك المرأة بعد ذلك وحيدة، لتمارس دورها بألم وصمت، كصانع ومانح للحياة.

أجاب الظل:

ـ إذا كانت الشهوة هي العتبة الثانية التي ترتقيها المرأة نحو الرجل الذي تشتهي، فسبب ذلك هو ليس سُموّ أخلاقها، وإنما لأن المتعة المازوشية تتطلب اختيارا أكثر حرصا وحذرا، وطقوسا أكثر حميمية وخصوصية ومزاجا، مقارنة بالمتعة السادية. وبما أن الخط الفاصل ما بين المتعة المازوشية والألم الغير مرغوب فيه هو خط رقيق، فعلى المازوشي أن يشعر بالأمان أولا، اتجاه شريكه ذي الميول المعاكسة، خشية من أن يحصل على ألم جسدي أو نفسي هو خارج سياق المتعة التي ينشدها.

ـ أيها الظل، إذا كان الرجل يبحث في المرأة عن الحرف، فإن المرأة تبحث في الرجل عن المعنى؛ فهو غالبا ما يجذبه شكل رسمها ورَونق جسدها. أما هي، فعيون قلبها لا تكتفي بأقل من

النفاذ إلى جوهر ذكورته، وذلك لعمق أحاسيسها وليس لمجرَّد مازوشيتها. وبهذا، فإنه قد يكون من الصعب على المرأة أن تتجاهل الشرط الإنساني، كمقدمة لإشباع شهوتها. بعكس الرجل، الذي قد يكون لديه المقدرة على الاكتفاء بالجانب الغريزي، لإشباع تلك الشهوة.

ولذلك فإن المرأة غالبا ما تكون ذوَّاقة في اختيار الرجل الذي تسلمه نفسها، منتظرة منه أن يُطلق سراح أنوثتها، ويحوّل جفافها نداوة، ويبدِّل خرائبها بمروج مخضَّلة خضراء.

في الحقيقة، ليس هناك ما هو أعمق وأرهف من شعور امرأة وهي في حالة حب. وكأنما الزمان يأخذ إجازة من نفسه، ثم يكفُّ الوجود عن الحركة، لتنصت كل أشيائه إلى سمفونية بوح أحاسيس الأنثى.

قال الظل:

ـ يبدو أن عقدة النقص التي نحملها، هي غالبا ما تحدِّد نفورنا ممن يشاركوننا ذلك النقص، أو انجذابنا لمن يُكمّلونه فينا؛ ولذلك فإن تعاطف النساء فيما بينهنَّ، لا يعني بالضرورة احترامهن لبعضهنَّ أو لنقطة الضعف التي تجمعهنَّ. فالمرأة في الحقيقة هي آخر من يحترم الأنوثة، حتى ولو نذرت كل ما لديها للدفاع عنها ضد الرجال. وكذلك فإن أكثر من يحتقر المرأة في دخيلته ويحطّ من شأنها، هم من جنس النساء، ولكنهن مع ذلك، يُطالبن الرجال باحترام المرأة! وفي كل الأحوال، فإن المرأة تبقى عاجزة عن إيجاد المعنى في نفسها أو في بنات جنسها، ولذلك فهي تبحث عنه دائما في الرجل، لا

في امرأة مثلها؛ لأن آخر ما يرجوه الغريق، هو أن يجد نفسه بجانب غريق آخر يقترب منه.

ـ أيها الظل، إذا كانت الذكورة هي قصة مخطوطة على لوح زجاجي شفاف، فإن الأنوثة هي القصة نفسها، ذات الأحرف نفسها، ولكنها مقروءة من الجانب الآخر لذلك اللوح، والعكس صحيح أيضا. وعلى الرغم من أن انقلاب الحرف قد يربك القارئ الذي ينتمي إلى الجانب المعاكس لذلك اللوح، إلا أنه لا يفسد إمكانية القراءة. وإنما فقط، يُغيّر المعنى.

ومع أن الأنثى لا يشغلها عادة البحث، لفهم ماهية الرجولة إجمالا، ولكن مع ذلك، لا يخدعها رسم الحرف، بل تحرص على فهم فحوى الرجل الذي تقرأه، لكي تعثر فيه على معنى ما، يناقض ويكمِّل ما لديها من المعنى، قبل أن تكشف له عن دلالة رسمها.

أما الرجل، فعلى الرغم من أن قراءة الأنثى ليست بالأمر السهل. ولكنه أيضا لديه الميل لأن يبتهج، مكتفيا بترتيل حروف قصة لا يفهمها.

فإذا عجز فهمك أيها الظل، عن تلقف فحوى القصة المكتوبة على الجانب الآخر من اللوح؛ فقد يكون سبب ذلك هو خلل في فهمك، وليس في معنى القصة نفسها.

قال الظل:

ـ ولكن مع ذلك، تبقى أوتار سريرة المرأة التي تعزف لحن وجودها، مُفتقدة فطريا إلى الاتزان والضبط، فإذا حلَّ الرجل المرتقب، يدبُّ التناغم فجأة في كل شيء. ثم أن هناك مفارقة توحي بعدم ثقة المرأة بالأنوثة كانتماء، وبأن المرأة تبحث

عن المعنى في الرجل، لأنها لا تجده إلا فيه، حتى ولو كانت تمقته؛ ذلك أن معظم النساء اللواتي يدافعن عن الأنوثة بتطرف وبدون قيد أو شرط، هنَّ غالبا الأكثر حقدا على الرجل. ولكن مع ذلك، فهنَّ الأكثر تشبُّها به وتقليدا له، وهن الأكثر احتقارا لضعف الأنوثة والنظر إليه على أنه ميوعة.

ثم أن المرأة المثلية مثلا، تنفر وجدانيا من الرجال، ولكنها في الوقت نفسه، هي غالبا ما تتشبَّه بهم وتقلدهم وتتماهى بدورهم الوجداني، عندما تمارس تلك الوجدانية مع بنات جنسها. وهذا لا يعني بأنها تحترم أنوثتهن، وإلا لتكنَّت بهنَّ لا بالرجال، ولاسيما أنها هي أصلا امرأة بالفطرة.

أجاب الغريب ببسمة ساخرة:

ـ ولكن الرجل المثلي أيضا ينجذب إلى أبناء جنسه وينفر وجدانيا من النساء، ولكنه في الوقت نفسه يتكنَّى بالنساء ويتشبَّه بهنَّ ويتماهى بأدوار أنوثتهن. فهل سبب ذلك أنه لم يجد المعنى إلا في الأنوثة، على الرغم من نفوره منها؟

قد يكون ذلك صحيحا، ولكن ذلك يعني بأن المعنى هو ليس حكرا على جنس بعينه، وأن الأنوثة لا ينقصها منه، سوى أنه كامن فيها لدرجة من العمق والثقل، مما يجعل المرأة عاجزة عن استخلاصه من ذاتها لوحدها، من دون مساعدة الرجل. ولكن كلما تخاذل الرجل، كلما بقيت الأنوثة حائرة تائهة، وبقي معناها غامضا مستترا. وما معنى الحياة بدون الأنوثة أيها الظل؟ فلولا الأنوثة لانتفى الجمال من الكون ولتصحرت الموجودات؛ ذلك أن البهجة أنثى والرقَّة أنثى والطبيعة أنثى، بل أن الحياة نفسها أنثى.

أما النساء اللواتي يتطرّفنَ في الدفاع عن الأنوثة ضد الرجل، ومع ذلك يتشبّهنَ به؛ فذلك لأنهنَّ يعتقدن بأن الذكورة هي الحصان الرابح بغير حق. وسبب ذلك هو الظلم الذي تتعرض له الإناث والممارسات المجحفة التي تنحاز إلى الذكورة وتمجدها، وكذلك المفاهيم الخاطئة التي رسختها الجماعة في لاشعورهن، عن امتيازات الذكورة وإعلاء شأنها.

ولذلك فهنَّ يحقدنَ على الحصان لأنه يربح بغير حق، ولكن مع ذلك، يحاولنَ امتطاءه؛ ما دام هو الحصان الرابح في النهاية.

وأما عن المازوشية التي تعتبرها أنت ما يشبه الإثم، الذي يجلب لصاحبه كل عار ونقيصة. فاعلم بأن مازوشية النساء هي على أية حال، أقرب إلى الحب والعطاء والتضحية والإيثار والعمق، من سادية الرجال، وبأن ضعف المرأة ومازوشيتها هما أجمل ما في الأنوثة وأكثر ما يجذب الرجل نحو المرأة بحرارة، على أن يبقى ذلك ضمن الحدود السويَّة لبشر أسوياء.

ففي الحقيقة، أن كل امرأة سويَّة يسكنها كائن مازوشي صغير، والأمر نفسه ينطبق على الرجل ساديا. ومن ثم، فإن تلك اللعبة لدفء العلاقة ما بين المرأة والرجل، هي بمثابة الملح للطعام. فأصحاب الذوق السليم لا يتلذذون بطعام لا ملح فيه. ولكنهم بنفس الوقت، لا يستسيغون ذلك الطعام، إذا زاد فيه الملح عن الحد المقبول.

ولكن لو تجرَّدت المرأة من مازوشيتها، فذلك يعني أنها سترفض الاستسلام والخضوع الوجداني لأي رجل، وذلك عندما يتضخم الذكر الذي في داخلها ويرفض الخضوع أمام أي ذكر آخر في مبادلة وجدانية. وبدلا عن ذلك تتحول إلى بنات

جنسها، الأقل خطرا وإيذاء، ولتكون اللعبة معهم أكثر حرية وعدلا، من اللعب مع ذلك "الكائن المتسلِّط" الذي اسمه الرجل؛ حسب صياغة المعادلة في لاشعورها.

ولا عجب في أن يحصل خلل في تناغم الأنوثة داخل المرأة، ما دامت هي الطرف الأكثر حساسية وقابلية للعطب، والأكثر ميلا للتشكيك بمشروعية دورها الوجداني كأنثى. وبذلك فهي الأكثر استعدادا لأن تحمل عقدة الجنس الآخر.

وكذلك فإن من أسباب تحوِّل الرجل إلى أبناء جنسه، هو إذا ما تمَّ تشذيب نتوءاته إلى درجة المسح، حتى تتلاشى ساديته الوجدانية. وبذلك يجد ما يفتقده عند أبناء جنسه، كونه لم يعد يستطيع تدبُّر أمر امرأة تسلمه نفسها، فيلجأ إلى أبناء جنسه ويسلمهم نفسه، لكي يتدبروا أمره هو. لأنه يرى في المرأة كائنا رخوا ومنفعلا مثله، فيميل إلى ضدها. إنه ينقلب إلى الجانب الآخر من وجدانيته، ما دام هناك فراغ وجداني يجب أن يُملأ على أية حال.

فلو اعتبرنا الحدود الدنيا من مازوشية المرأة وسادية الرجل، ميولا غير سويّة، ونجحنا في تربية الأجيال القادمة بشكل سوي، تبعا لأخلاقية مثالية. فقد ينتج عن ذلك أن ينطوي كل فرد على أبناء جنسه، فلا تعاشر النساء إلا نساء، ولا يعاشر الرجال إلا رجالا. وبذلك قد تتعثر استمرارية الحياة، أو على الأقل، فإنها ستفقد جماليتها ومعناها.

قال الظل وهو يتثاءب، وقد بدت عليه ملامح التعب والضجر:

ـ كلما أعدتُ الإطلال على أعماق المرأة، بدا لي بأنها أكثر تناغما مع كيانها ووجودها، مقارنة بالرجل، وذلك على الرغم

من عبءِ أنوثتها؛ إذ أني بتُّ أعتقد، بأن عبء الأنوثة نفسه، هو بمثابة المتكأ لها، وهي تتكئ على عبئها، ما دامت هي المازوشية التي تنتشي عاطفتها مع من تحب، بنوع لذيذ من الإذلال الرمزي لأنوثتها، وبالألم ولو كان خفيفا لجسدها، وهذا ما منحتها إياه الطبيعة، وجعلته جزءا من تركيبة ووظائف جسدها. ثم يأتي دور الرجل الذي يحبها، ليكمل مع الطبيعة تلك الدائرة، التي لو نقص جزء منها لاضطربت وجدانية الأنثى.

مع أن هناك صنفا من الرجال، يخضعون للمرأة بغية تخفيف عبء الأنوثة عنها، ولكنهم في الحقيقة يتكئون على عبئها، لجهلهم بتناغم سريرة المرأة مع ذلك العبء، وبهجتها في الخضوع لرجل.

إذن، فالطبيعة لم تظلم المرأة بمنحها ذلك العبء، لأن عبأها نفسه هو متكأ لها. أما الرجال المساكين، فلا عبء لذكورتهم لكي يتكئوا عليه.

ابتسم الغريب وهو يتغامز مع ظله قائلا:

ـ ما أغلظ قلوب الرجال وما أشدَّ ساديتهم.

صمت الظل لوهلة، ثم قال:

ـ يبدو أننا قد عرفنا عن المرأة، حتى ما لا تعرفه عن نفسها. ولكن هل استطعنا حقا أن نعرف عنها ما تعرفه هي عن نفسها؟

أجاب الغريب:

ـ ولكن هل تستطيع المرأة حقا أن تعرف أو تفهم نفسها، إلا في سياق فهم رجل حكيم ومُحب لها! إذ يبدو لي أن ذلك ما كانت تعنيه الراهبة. ذلك أن المرأة التي لم تعرف حب الرجل

ودفأه، هي كالنار التي لم توقد بعد؛ فإذا كان الرجل بدون امرأة، ذَكَرا مع وقف التنفيذ، فإن المرأة بدون رجل، كيان مع وقف التنفيذ.

ـ ألهذا تبحث المرأة عن أبيها في زوجها؟ سأل الظل.

ـ إنها تبحث فيه عن وجودها كله؛ فالرجل يهيم وراء المرأة باحثا عن جزء لا يتجزأ من وجوده، ولا يستطيع المساومة عليه. أما المرأة، فتهيم وراء الرجل باحثة عن وجودها كله.

قال الظل:

ـ إذن، فالراهبة كانت تومئ باستحالة التعفف عن النساء، وبالمقابل كانت تدعونا للتقرب منهن وفهمهن، بدلا من محاولة التعفف عنهن. وهي كانت تسخر منا لجهلنا بالمرأة، التي هي أصلا لا تمتلك معرفة حقيقية عن باطنها، أو إدراكا ثابتا لمعنى أنوثتها بعيدا عن الرجل.

ولكن هل كانت الراهبة حقا، هي التي تعففت عن الرجال؟

أجاب الغريب:

ـ يبدو أننا قد ابتعدنا كثيرا، وأرى أنه قد حان وقت العودة إلى الشيخ.

وقبل أن يمضي، استدار الغريب نحو المرأة قائلا:

ـ أيتها المرأة، منك السلام وعليك السلام.

***

الراعي ثانية

اجعل الأشياء بسيطة قدر المستطاع،
ولكن ليس أبسط من ذلك.

ألبرت أينشتاين

في طريق العودة إلى الشيخ، وبينما كان الغريب وظله يسعيان كتائهين، سمعا صوتا ينادي من بعيد؛ لقد كان الراعي يرصدهما، حيث كوَّر يديه حول فمه وراح يصيح:
- أراك تعود لمعلمك خالي الوفاض يا غريب. أولم تعثر على الماء؟ ولكن لا تقنط يا صاحبي، فقد يأتيك الماء يوما من السماء، من حيث لا تحتسب.
ثم أخذ يعزف على شبّابته ويرقص بنشوة وفرح.
اقترب الغريب منه قائلا:
- من مرَّ بالربيع ولم يرَ فيه غصنا أخضرا، لن ينتظر من الشتاء أن يمنحه الغيث. إن السماء لن تمطر إلا ما وراء الفصول أيها الراعي.

كان الراعي ذا كرش مُكتنز ومنكبين عريضين وخدين ممتلئين، تكسيهما لحية فاحمة كَثّة، ويبرز بينهما أنف معقوف، كمنقار طائر لاحم. ومع أن مظهره كان يوحي بأنه قد

تجاوز العقد الرابع من العمر، إلا أنه كان مفعما بالسعادة والمرح، وكأنه يلهو مع أيامه كما تلهو مع بعضها صغار القطط.

قال الراعي وهو يتلوى ضاحكا، وكأنما ثمة أصابع تدغدغ خاصرته:

ـ ولكن حدثني عمّا فعلت بك ناهدات الثدي يا غريب؟ وهل راقصتهنَّ بما يليق بحسنهنَّ وعطشك؟

أجاب الغريب:

ـ لقد عاشرت منهنَّ الأميرة والقبيحة والمومس، ولكني لم ارتو؛ إذ يبدو أنه عطش أبدي، لا شفاء منه ولا ارتواء. فلقد أحرقت كل ما كان يثقل كاهلي من حطب، ولكني لم استرح، ذلك أن النار ما تزال نهمة للمزيد، وتدفعني لأن أحتطب من جديد.

ـ تلك هي الحياة يا غريب، والحياة امرأة، فإذا أحبها الرجل بكل كيانه، فإنه يرى جوانب النقص فيها كمالا، ولكنه مع ذلك لا يقنع ولا يرتوي؛ فلقد أحببتُ من نساء الأرض امرأة واحدة، ولكن دون أن أدري، أحببتُ معها أطياف جميع نساء الأرض. ذلك أن سحر الأنوثة يا صاحبي، هو دائم الطواف حول أرواحنا، كأفق وردي مبهم. من واصله، صارت حياته كلها وردية، بلون ذلك الأفق.

وكذلك فثمة حقبة من العمر يمرُّ بها الرجل، تصبح فيها المرأة هي الحلاوة الحقيقية الوحيدة في الحياة. حيث ينعكس طيف المرأة على كل شيء، وحيث تشي جميع الأشياء برائحة المرأة.

ثم قهقه الراعي وهو يهرش ذقنه قائلا:

ـ ولذلك تكثر حماقات الرجال في تلك الحقبة، حيث يُصاب الرجل بما يشبه اللوثة في عقله، فيهيم كالمأفون على غير هدى، لا يلوي على شيء سوى جسد المرأة والقرب منه؛ ذلك أن المرأة تصبح رديفة الحياة، بل تصبح هي الحياة بعينها. في وقت تضيق به أيام الحياة بعددها، فيدخل المرء مع ما تبقى من أيامه في سبق، كمن شعر بحلاوة الطريق في آخرها.

أتدري ياغريب، إن الروح والجسد هما أشبه بعاشقين؛ ففي طور الطفولة يلهوان ويتعارفان، وفي طور الشباب يهيمان ببعضهما. ثم ما أن تمر السنين حتى تبدأ المناكفة والتململ والخصام، إلى أن لا يصبح لأحدهما الطاقة على احتمال الآخر، فيفترقان. ولكي يحافظ الرجل على حالة الوئام والوصال مع روحه، فما عليه سوى أن يُسلم تلك المهمة لغادة حسناء، أو لكأس مدام؛ ذلك أن دائرة سكون النفس تتطلب توفر عناصرها لكي تكتمل، ورقة الأنوثة هي من أهم العناصر لاكتمال تلك الدائرة في داخل الرجل.

أما الخمرة، فهي خير استراحة للمسافر من عناء الطريق؛ إذ أنها أشبه بواحة، ماؤها سلسبيل وأشجارها وارفة الظلال. ولكن حذار، فالسُكر حرام على من لم يك صاحيا قبل الشرب، لأن من لا صحو له لا سُكر له.

قال الغريب:

ـ ولكن تلك الواحة موجودة في الداخل؛ فالخمرة شأنها شأن المرأة، هي ليست سوى حَجَر يحكّ عروقنا، لكي يقدح شررا هو أصلا في حالة كمون. أي أن النار كامنة في دمائنا، وليس

في الخمرة أو النساء. وبذلك فإن الإنسان قادر على الاكتفاء بما في ذاته. فإن سعى لما أراد ، استطاع.

أجاب الراعي:

ـ ولكن مع ذلك، فإن النار تحتاج إلى مقدمة ما، لكي يتم استنباطها. والنتيجة تبقى كامنة في المقدمة، وليس العكس. وإلا فلماذا لم يستطع من يريد؟ وهل استطعت أنت يا غريب، أم أنك لا تريد؟

ثم إلى متى ستبقى هائما تبحث عن الماء؟ أولم تدرك بعد بأنك مغمور به، من بعدما علقت عفتك في صنارة النساء؟ ثم لم تسحبك الصنارة من البحر إلا إليه. فإلى متى ستبقى تغوص في البحر باحثا عنه؟

قال الغريب:

ـ ولكني أسعى لأن أطلّ على وجودي من الخارج، قبل أن تسحبني صنارة الصياد منه عنوة، وإلى غير رجعة؛ إني أنشد لقاء ذات الكون أيها الراعي، قبل أن يحين موعد اللقاء.

أجاب الراعي:

ـ لكي تقترب من الله يا غريب، عليك بالفرح النقي، فذلك هو أقرب الطرق للقرب منه. ولكي تستحضر أسباب ذلك الفرح، عليك أن تحب جميع الكائنات وأكثر ما فيهم النساء، وأن لا تؤذِ أحدا، بما في ذلك نفسك.

ثم لا تثق بالمؤمنين الذين يهدمون بيوتا على الأرض، لكي يبنوا بحجارتها مساكنا لهم في السماء؛ فأولئك الذين شغلهم دخول الفردوس عن حب الناس، لن يدخلوا فردوس الحياة أبدا، لا على الأرض ولا في أي سماء.

وحذارِ ممَن يحطّون من قدْر الإنسان وقيمة عقله، كإثبات على علو شأن الله. لأن هؤلاء كالدمى المتحركة التي تتحكم بخيوطهم غرائز من داخلهم، ولكنهم مع ذلك ينسبون سبب الحركة إلى الله؛ فيقتلون وينهبون ويكذبون باسم الله. ثم يتباهون على الخلق بأنهم من أهل الخلاص، وبأنهم سيرثون الأرض والسماء. ولكن سرعان ما يرث الدود الأبيض أجسادهم، وللدود الأبيض حكمته؛ فهو لا يُفرِّق بين جثة قديس وجثة زنديق.

ثم حذارِ ممن ينادون بأن وصال المرأة من الرذائل، ولكن ما أن تقع عيونهم على فاتنة، حتى يبدأ خيالهم بنزع ثيابها والعبث في أنحاء جسدها. فأولئك هم كمن يخفون ذيولهم في ثيابهم، وهم يلعنون ويشتمون كل ذي ذيل. ولكن ما أن يختلوا بأنفسهم، حتى يخلعوا ثيابهم و يبدأوا بتمسيد ذيولهم ومناجاتها والثناء عليها.

أيها الغريب، حتى الناسك في صومعته، عندما يجلس متقرّبا إلى الله، يسكن في الجانب الباطن من سريرته طيف امرأة عارية، يُحفِّزه للقرب مما يريد. وحتى الراهبة في معبدها، تستمدّ دفء إيمانها بالله، من خلال ثقتها بقدرته على منحها الدفء أخيرا في حضن رجل.

وأما من يتفاخرون بأنهم قد أفلحوا في التعفف عن أكل اللحم. فعليهم أن يثبتوا أولا، بأنه لا يزال لديهم أنياب قاطعة، وجوف قادر على أن يتمثل الدَسِم من الطعام.

في الحقيقة، أن في داخل كل إنسان منا يربض ذئب شرس. ولكي نحسن التعامل مع ذلك الذئب، علينا أن نعترف أولا، بأن

هناك ذئب، وأن لا نستخف به أو ندير له ظهورنا، كي لا يباغتنا وينهشنا من الخلف. ومن لا يعترف بذئبه، قد يأكله الذئب.

وكذلك فإن أخطر الذئاب، هي تلك التي يكسوها أصحابها بصوف النعاج، لكي تبدو وكأنها مثل باقي القطيع. وبذلك فهم يوهمون الآخرين بأنهم مسالمون متعففون عن الرغبات والأهواء، وبأن قطيعهم لا ذئب فيه. وهم يفعلون ذلك؛ إما خوفا من الآخر، بغية إرضائه، أو بغية الكيد به، بعد أن يطمئن إلى القطيع وصاحبه، وبذلك يقع فريسة سهلة في أنياب الذئب.

أما أنا، فأحب ذئبي وأعتز به، مثلما أحب كلبي الذي يحرس لي القطيع؛ فبعد أن عجزت عن نفي أحدهما، رتبت لكل منهما ركنا أنيقا في داخلي. فصارا كلٌ يلزم ركنه، ويعترف بالآخر ويعيش معه في سلام، ثم تركت رحى الحياة تدور؛ فكلما أكل الذئب نعجة، أسلمت له نعجة أخرى ليأكلها حين يجوع. وهكذا فإني أعيش الحياة كما تقتضي الحياة، وأنعم بالسلام مع ذئبي وكلبي وقطيعي، بعيدا عن الأساطير والمعجزات.

فنحن في الحقيقة يا غريب، نُطعم خرافنا لكي نأكلها. أو يمكن القول، لكي نطعمها للذئب، كلما جاع وعوى في أعماقنا. وليس هناك من يُطعم خرافه من أجل تخليدها، وإنما نحن نفعل ذلك، لكي تقتات عليها أنفسنا الجائعة أبدا، إلى أسباب الخلود والاستمرار.

وعلى الرغم من أن الإنسان يدرك في أعماقه، بأن الخلود وهم، ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يتقبل الموت كحقيقة،

فيهيم نحو أسباب التناسل لكي يتحايل على الفناء. ولذلك، فإن كل سعي نقوم به، غالبا ما يكون دافعه الخفي؛ إما الهروب من الفناء، أو التوق الكامن لنشوة وصال الجنس الآخر. ونحن في الحقيقة نلجأ إلى الثاني هربا من الأول.

وحتى لو كنا قديسين نخشع في صلاة صادقة، فنحن في الحقيقة نسعى لأن نعدّ القوت للذئب الذي في داخلنا، ونهمس له واعدين، غامزين، متآمرين معه على هدف سعينا من حيث لا ندري. ولكن الذئب يسمعنا جيدا، ويُعد العدة للوليمة الموعودة.

ولذلك، فإنك قد تسعى نحو معايشة خلود الروح، فتنوي العفة وتقصد الطريق إلى الله بخطى ثابتة ونية صادقة، ولكن لا يلبث أن ينتهي بك الطريق في أحضان امرأة.

وبذلك، فالأولى بنا أن نلعب على مسرح مكشوف مُضاء، وأن نعترف بذئبنا ونُطعمه بإرادتنا، بدلا من أن يشتد به الجوع، ويأكل ما لا نريد. فإذا أردنا أن نكون أحرارا من أسر غرائزنا، فما علينا سوى إشباعها بمسؤولية؛ ذلك أن أقرب الطرق للتحرّر من الشيء هو امتلاكه.

سأل الغريب:

- ولكن ما فائدة الكلب الحارس إذن؟ ما دام الذئب يأكل من النعاج ما يشاء؟!

أجاب الراعي:

- ما دام الذئب يحصل على حاجته من القوت، فهو يطيع الكلب ويأتمر بأمره، ذلك أن هناك نعاجا مُحرَّمة على الذئب. والكلب في الحقيقة، هو من يقرر للذئب أي من النعاج يأكل

حين يجوع، ويزجره إذا ما راودته نفسه على الاقتراب من المُحرَّم منها. أما إذا اشتد الجوع بالذئب وعلا عواؤه، فلا طاقة للكلب دائما على لجمه. وعلى الرغم من أن الكلب هو أعلى مرتبة من الذئب، إلا أن الذئب هو أكثر أصالة وقوة وشراسة، إذا ما جاع؛ فنحن نولد وذئبنا موجود معنا يا غريب. أما الكلب، فنكتسبه اكتسابا، ونوعز له لكي يردع الذئب، تبعا لما تقتضيه تقاليدنا وأعرافنا.

***

ـ ولكن، لماذا يُطعم الشيخ نعاجه إذن؟ وماذا عن ذئبه؟ وهل ما يزال لديه حقا أنياب قاطعة؟ قال الغريب متمتما، وهو يجدُّ السعي نحو الشيخ.

***

بين محطتين من صمت

عشت قرب حياتي كما هي؛
لا شيء يثبت أني حي، ولا شيء يثبت أني ميت.

محمود درويش

تسلقتُ أعلى قممي، وجلستُ أرصدُ علوا كنتُ قد خبرتُ شذاه.
رأيتُ النور يعانق الأفق قائلا: لا تحزن إن فارقتك اليوم، واستبشر بلقائي غدا في صباح جديد.
رأيتُ ظلالا تأتي وظلالا تذهب، والنور يُكمل دورته باسما؛ يسحب ظلاله، ثم يبسط ظلالا أخرى من جديد. وكانت الظلال تتعدد، والنور هو واحد.
رأيتُ الناس مختلفين حول اللّه؛ فرأيتُ ملحدين ينفون عن اللّه صفة الوجود، ورأيتُ وثنيين يثبتون عليه تلك الصفة. ورأيتهم يتخاصمون ويقتتلون ويمشي كل منهم في طريق. ثم يعودون، فيلتقون ويتهامسون: من نحن؟ من أين أتينا؟ وإلى أين المصير؟
لسنا سوى مسافرين بين محطتين من صمت، بل أن المحطة واحدة؛ نسافر منها إليها، فمن الصمت أتينا وإليه نعود. فطوبى لمن أوجد لنفسه محطة صامتة في ضجيج الطريق.

وأنا تعبتُ من ضجيج الطريق، ورحتُ أبحث عن سكن لأسكن له، فما وجدته إلا في ذاتي. فاستدرتُ نحوها لأستقصي ما استتر فيها، ثم فتحتُ نوافذي من الخارج وأطللتُ على داخلي.

رأيتُ مهرة أمل، تجرٌّ وراءها عربات محمَّلة بالأشجان. وأنا أثق بمهرتي، ولكني أخاف مما تخفيه بداخلها الأحمال.

رأيتُ أحزاني تحاصر فرحي؛ كما تحاصر الغربان بلبلا، قد أبى إلا أن يغرّد عاليا، متحديا قبح وصخب النعيق. ولكن إلى متى؟ ولكم من الأغاني يتسع قلبك أيها البلبل؟

رأيتُ ما بين حلمي وبيني هُوَّة؛ هي أشبه بالفرق ما بين نشوة الطفل بالحياة، وشقاء الكهل بها.

رأيتُ أقدامي تغوص في وحلٍ كثيف، وجبيني يهيم نحو عاليات الذرى. فلا لأقدامي قدرة على الوثب، ولا لجبيني قدرة على الانحناء.

***

ـ أين أنتَ من حلمك أيها الغريب؟ أفلم تطلق ذاتك من أسرها بعد؟ أم أنك ما تزال تتشبث بالأشياء، رهبة من اللاشيء؟

ـ يا صاحبي، لا الأشياء ترويني، ولا اللاشيء شيء، لأفهمه وأعبده على عجل، ليمطرني على ظمأ تصحَّر في شراييني.

و"الآن" لا تأتيني طائعة من نفسها، ولا بُدَّ لي من الإبحار نحوها كلما ابتعدت. فما أن أضمها إلى قلبي وأذوق طعم وصالها، حتى تنسلّ كنسمة من بين ذراعيّ؛ أميرة تتدلل على عاشقها

وتطلب منه مهرا، ومهرها هو كل ما عداها، مما كان من الزمان وما سيكون.

والعاشق سخي كلما استطاع، ولكن أمسي وغدي يتصارعان على حصتهما من يومي؛ فثمار يومي طيّبة المذاق، ولكن أغصانه قد أصبحت عالية، عسيرة المنال. والشكوك صارت تحوم حول جناحي، كسرب طيور جارحة.

- أما عثرتَ على يقين؟

- إن الشك ما يزال يُبعثّر ما ترتب في داخلي، وأنا أحاول ترتيبه من جديد. أفلا يكون الشك هو ملح الحقيقة؟

- ولكن الشك كالإيمان، لا يورث إلا التفكير، والتفكير هو الطريق المعاكس لوجهتك. فإن كنتَ قد ابتغيت وجهة أخرى، إلامَ تحمل أحزانك وتجول فوق أفراح الآخرين، كما يجول الطائر الغريب؟ ألم تتعب؟

فضمَّ جناحيك إلى قلبك ودُبَّ على الأرض مع من يدبّون. أو أوجد لنفسك جحرا تأوي له؛ فالأرض أولى بالمتعبين التائهين في مجاهل الفضاء.

- لو كان لي أرض يا صاحبي، لما التجأتُ إلى الأفق، ولما عيَّرتني الزواحف بجناحي.

والعلو عمق إذا رحب المجاز؛ فكل ما أورثني إياه وجودي، هو فضاء حفرة ضيقة سحيقة الغور. وجُلّ من ينذرون أنفسهم لبلوغ الأعالي، هم نفسهم من ضاقت بهم واطئات الحفر.

ولكن في حفرتي تجتمع النقائض؛ فلي حفرة لم أكن أعرف من وجودي سواها، ولما ضاقت حفرتي أكثر مما أحتمل، وقد أيست من الخروج من فوهة النور العلوية فيها، رحت أحفر في

جدرانها كي تتسع. ولكن ما لبث أن زال التراب عمّا يشبه النافذة المغلقة، ولما فتحتها، راودني ما يشبه النور. ولكن لم تستنير حفرتي، وإنما قايض بعض النور قسطا من العتمة فيها. ثم أطللت من النافذة، وإذا بها تطلُّ من الأعالي على سفوح شاسعة خضراء، تعكس النور على ناظري. فأدركت بأن حفرتي تقع على ذروة جبل شاهق، بينما تقع ذرى الكثيرين في ظلام الحفر. حتى أني بتُّ أخشى أن أسقط من حفرتي إلى ذرى الآخرين، فأتوه عن نافذة النور المفتوحة على داخلي.

لقد أنستُ بالإطلال من نافذتي، ولكني ما أزال أسيرا داخل حفرة، تحجب عني ذروة أنشدها. وما بين الحفرة والذروة ثمة لا طريق، يصل الكيان باللاكيان.

ماذا لو تهنا في اللاطريق؟

ثم ماذا لو بلغنا اللانهاية، ثم تهنا عن البداية؟

فللعودة أيضا لا طريق، ومن تاه تاه، ومن لا حفرة له لا حال له.

ولكن حفرتي تزداد ضيقا وتنشب مخالبها في ذراي. وأنا أحببتُ الشمس وحفرتي، فكيف الخلاص لعاشق الضدين!

وكيف السبيل إلى لقاء من أحب؟ وهو الذي لا يأتي إلا في ذهابي، ولا يحضر إلا في غيابي! فالنور والعتمة لا يجتمعان.

ولكن أعتمة حقا أنا؟

وما الأنا؟

أحفرة أم ذروة أناي؟

أم حفرة في ذروة؟

أم ذروة في حفرة؟

ـ يا غريب، كلما اتَّسع خيالك زاد شقائي. أما تلك النافذة التي فتحها خيالك، فهي لن تجلب لك الخلاص الذي كنتَ قد اقتربتَ منه وخبرتَ شذاه؛ لأنها لا تطلُّ إلا على ظلال قد حاكتها حواسك وأفكارك، وما هي سوى صدى فلسفة التائه في كهفه العلوي المزعوم. وأنت ابتدعتَ تلك النافذة، لأنك لم تستطع التعايش مع حفرتك كما فعل الراعي، ولا أن تخرج من الحفرة إلى داخلك، كما أوصاك الشيخ.

فإما أن تقنع بالزهد وتلجأ إلى الصمت كطريق، فتسكن إلى داخلك بحثا عن الخلاص. أو أن تخرج إلى الناس وتلهو مع الحياة بخفَّة مثلما يفعلون.

ـ يبدو أننا نختار البعد عن الناس، عندما نشعر بأننا وحيدون بينهم؛ وأنا أنستُ لوحدتي، حتى إذا فارقتها، بتُّ أشعر بعدها بالوحدة.

ـ ولكن الوحدة إن لم تقترن بهدفٍ سامٍ، هي ليست سوى ملاذ للضعفاء والعاجزين عن مواجهة الناس. فكن قويا مثلما عهدتك، وسِر إلى الحياة شامخا، عزيزا، لا يلوي قامتك شيء.

ـ يا صاحبي، ليس كل من انحنت قامته بضعيف، ولا تخدعنك قامة السنابل الفارغة. أما أنا، فقد ألقمتني الحياة غصَّة لا تزول؛ إذ كنت أسير بحمل، كان يكاد يقصم ظهري، فهمت أبحث عن مكان رزين يليق بثقله لألقيه هناك. ولكن عندما وجدته، ما أن وطأته، حتى انقلب المكان ضدي، وتحوَّل حملا أضيف إلى حملي. فصار الحمل ثقيلا، حتى أنه لم يعد هناك مكان يقوى على حمله سوى كاهلي.

لقد داستني الأيام بنعالها يا صاحبي، ولكني سرت. ولأني تعثَّرت بذروة الجبل، أصبحت عاثرا صغيرا بعين الحصى، فصارت تملأ دربي. اخترتُ دربا جانبيا آمنا، فخذلني وقادني إلى وحدتي.

ـ ما زلتَ تجرّ طريقك وراءك يا غريب، مثل رحَّالة يجرُّ معه كل الأمكنة التي يمرّ بها. فخفف عنك حملك وانسَ ما مضى ولا تتلفت للوراء، ثم ارسم طريقك بنفسك؛ فطريقك بكر وخطواتك هي المحراث.

ـ وأنا تعلمت يا صاحبي بأن أسير دون أن أتلفت للوراء. ولكن الآثار التي رسمتها خطاي خلفي على الطريق، وجدتها تسبقني وترسم لي الدرب الذي سأسلكه. وبدلا من أن أختار وجهة دربي بمشيئتي، وجدت الدرب مرسوما سلفا، ليقودني تبعا لما اقترفته خطاي. مع أن إيقاع خطاي نفسه، هو ليس سوى أثر خطوة قد تركها أسلافي في داخلي، على طريق الحياة اللامتناهي.

ـ وهل تجحد تعاليم الشيخ وتنكر الإرادة الحرَّة قاطبة؟

ـ يا صاحبي. ما دمنا أحياء، فلا شك بأننا قادرون على التحكم بأقدارنا ضمن حدود هامش ما، يختلف في اتساعه بين إنسان وآخر. وذلك تبعا لمدى طغيان دائرة الروح على دائرة النفس في داخلنا. ولكن، أليس تقرير مساحة ذلك الهامش، هو أمرا عائدا للحتمية في ظاهره، أو ربما في بعده الخفي للقدر؟

ذلك أن الروح فينا هي خامة الواحد في الكثرة، وهي واحدة لا فرق فيها لدى جميع الكائنات. أما النفس، التي تكمن فيها إرادة الفعل والتمايز بين البشر، فهي حالها حال الجسد؛ إذ أنها إرث مكتمل الصياغة والتكوين، نتلقفه من الآباء والأجداد، من دون أن يكون لنا الخيار أو السلطان على ما بذروه فينا من

موّرثات، أو ما لقنونا إياه منذ نعومة أظفارنا. وبالتالي، فالزرع هو زرعهم ونحن لسنا سوى حاصدين، أما بقية حياتنا، بما فيها من خيارات وأفعال نقوم بها، فهي ليست سوى ردة فعل على ما فعلوه فينا. فنحن نسعى، ولكن أليس الوقود الذي يوقد سعينا، كان هناك من ملأه وحدد نوعيته ومقداره سلفا؟ فأين يكمن العامل الذاتي، للقدرة على تعزيز دائرة الروح، بغية التحكم بمساحة ذلك الهامش، الذي نتحكم من خلاله بقدرنا؟

- يا غريب، من غير المقبول أو المعقول أن نكون مجرَّد كائنات منفعلة بالكامل، تحرِّكنا قوى خفية أو عوامل كامنة فينا سلفا، بالمطلق؛ ذلك أنه يبقى هنالك عامل ذاتي، يكمن في نقطة تلاقي الروح والنفس والجسد، قد يمكن تسميته بالأنا الفردية الفريدة، ولا أقول الأنا الكلية المطلقة. والأنا الفردية تلك، هي كيان عاقل وحُرّ بمقدار؛ فهي ليست جسدا موروثا، أو نفسا مكتملة الصياغة والتكوين سلفا، ولا روحا مطلقة حرة. وإنما هي مزيج فريد من تلك الأقطاب الثلاثة، وهي التي تمنح الإنسان قدرة ذاتية على المناورة، تؤهله لتعزيز سلطان دائرة الروح في داخله، ولتمنحه بذلك المزيد من الإرادة الحرة، التي تجعله أكثر كفاءة على اتخاذ القرارات وتحمّل مسؤوليتها. ليكون الإنسان حينئذ أقرب إلى الكائن الفاعل الحُر، المستقل إلى درجة ما، عما اكتسبه من المحيط أو ورثه من السلف.

تنبَّه الغريب فجأة إلى صوت الظل، وهو يلتفت إليه قائلا:

- كفاك غفلة وهيا بنا يا غريب. لقد تأخرنا، وآن الأوان لكي نمضي ثانية نحو الشيخ.

***

ما الذي شبك الذكور والإناث؟

لا سادة للحب، إلا في هذه النار، التي تجعل الأجساد أجسادا إلى هذا الحد،
بحيث يحرق بعضها بعضا...
عشّاق يجابه أحدهم الآخر، وكل واحد يحمل الآخر حريقا في ذاته...
هذه المحرقة هي التي تملأ الحياة بالتوق
جاعلة الموت يشحب تحت نارها الهادئة

بيير عمانوئيل

كان الشيخ واقفا أمام كوخه، ينثر بذورا لطيور كانت تلتفّ حوله، في وقفة تمتزج فيها مرونة الشباب بطلعة الشيوخ المباركة الوقورة، عندما أطلَّ الغريب بقامته النحيلة وهيئته المتعبة، وهو يسحب حصانه والإعياء باديا على محيّاه.
أفلتت من الشيخ بسمة مفعمة بالبشر عند رؤية الغريب. فأقبل نحوه، ثم تعانق الرجلان عناق الخلان.
قال الشيخ وهو يحدِّق في وجه الغريب ويمسك بكتفيه:
- تبارك حجك يا غريب.
- بوركت يا معلمي. لقد كان مرامي أبعد مما استطاع أن يصل خيالي.

ـ لا عجب يا غريب، فهذا هو حال الذين يذهبون بعيدا، قال الشيخ باسما، وهو يسير مع الغريب إلى داخل الكوخ. ثم راح يعدُّ له ما يقيته ويخفف عنه شظف الطريق وعناء السفر.

وبينما كان الغريب جالسا والحيرة بادية على وجهه، اقترب منه الشيخ وسأله بحذر:

ـ وهل بلغت مرامك يا ولدي؟

أطرق الغريب ولم ينبس. ثم ساد الصمت، إلى أن قطعه الشيخ بنبرة لا تخلو من الحزم:

ـ أو هل ذهبتَ إلى النساء؟

أخفض الغريب بصره واسترسل في صمته، بينما كان الشيخ يتفرَّس في وجهه، وكأنه يريد أن يستجلي أمرا ما قد طال انتظاره.

ثم ما لبث أن قال الغريب:

ـ إنه الظل أيها المعلم.

ـ ليسوا أحرارا من يتبعون ظلالهم يا غريب.

أجاب الغريب والغصَّة تملأ حلقه:

ـ ولا هم ببشر من استطاعوا أن يتحرَّروا منها أيها الوقور. وأنا بدوري قد فشلت في بلوغ مرتبة الآلهة.

ـ ألم أوصيك بأنه يجب عليك أن تذهب بعيدا لكي تقترب من غايتك؟

ـ وأنا اتبعّتُ وصاياك يا معلمي، ولكني كنت كلما ذهبت بعيدا، وجدت نفسي أقرب إلى المرأة. إلى أن أدركت بأن الشهوة والحياة تسيران جنبا إلى جنب على طريق وجودنا؛ وبقدر ما كانت تتعزز الحياة في داخلي، بقدر ما كانت تستعر الشهوة.

فكيف لي أن أقطع الحبل السري ما بيني وبين الحياة، وأنا ما أزال في رحمها والمخاض لم يأتِ بعد؟ وكيف لي أن أتعفف عن المرأة؟ وهل يتعفف النهر عن الماء! أم هل يتعفف الأنف عن الهواء! فكما للجسد، فإن للنفس أنفا وتنفسا وهواء عليلا، ولو كان أنف النفس يتموضع بالمقلوب من أنف الجسد.

أقسم بالطريق الذي جمعنا أيها المعلم، بأنني كنت قد دفنت شهوتي تحت طبقات من الجليد والصفيح، ولكنها ما لبثت أن بُعثت من جديد، وراحت تأنُّ وتعوي في داخلي مثل ذئب جريح، أو مثل بركان قد ثار، وليس له فضاء سوى جسد المرأة.

أيها المعلم، إن ما بين الذكور والإناث جحيما من الشهوة، نارا قد أوقدت منذ الأزل، ولا يُطفؤها سوى الوصال. فمن لديه القدرة على احتمال سعير تلك النار!

ـ من أراد العفّة يا غريب، عليه أولا أن يلجم أسباب النار، وإلا فإنه سوف يظل يكتوي بلهيبها كلما استعرت، ولولا العفة يا ولدي لبقي سيف الشهوة مُسلَّطا على رقبة الحياة.

ـ ولكن إذا كانت الطبيعة ومن يقف وراءها، قد قذفوا بنا إلى الصحراء. ولكنهم منحونا بذورا وماء، أفلا نزرع، لكي تبرعم الحياة ذكورا وإناثا، وليتبادلوا الرحيق وليجنوا الثمر؟

ـ ما زلتَ اسيرا لعالم الظلال الذي توحي لك به حفرتك يا غريب. وأقسم بأنك لن ترى النور أبدا، ما لم تخرج من حفرة أناك.

ـ ولكن ما دامت الشهوة هي التي تحرِّك اللاعب الخفي، الذي يُحرِّك الدمى من وراء الستار. فكيف لتلك الشهوة أن تكون

مجرَّد ظل، مع أن معظم أفكارنا وأفعالنا ودوافعنا هم مجرَّد ظلال لها!

ـ هي ليست نور على أية حال يا غريب، لأن المسرح بكل ما فيه هو مُجرَّد ظلال في ظلال.

ـ ولكن تلك الشهوة يا معلمي، مركوزة في عمق النفس، وهي تملأ أفقها ومداها؛ فنحن مهما ابتعدنا عن النساء، فإنهنَّ سيظلّن يحلّقن في فضاء أعماقنا كأسراب من الحمام الأبيض. ومهما أشحنا بوجوهنا عنهنَّ، فإن عيوننا الخلفية سوف تبقى تتعقبهنَّ أينما حللن.

فإذا حضرن، فإن مُجرَّد الجلوس في حضرة رقتهنَّ، يثقب الروح ويسكب في الثقب بلسما، تتعافى معه كل ما في الوجود من أشياء. أما وصالهنَّ، ففيه تورق الروح وتزهر، وقد تثمر بأرواح، نسند عليهم ما تبقى من أيامنا.

ـ دع الروح في عليائها يا غريب؛ فالروح ليس لها نسل أو ثمر، وهي لا تلد ولا تولد ولا تموت. أما النفس، فهي التي تزهر وتثمر وتذبل، ثم تموت فيفنى الجسد.

فالنفس شمعة والروح لهب، يحرق الشمعة بعامل الوقت، ولكنه لا يحترق به. إلى أن تذوب الشمعة أو ينتهي أجلها، فيرتقي القبس إلى أصله نقيا مشعًّا مثلما هبط.

وكذلك فإن كل ما عايشته أنت من ملذات الحواس، هي شهوات نفس لا شهوة روح؛ فشهوات النفس تنهمر علينا من حيث لا ندري، مثل حبات المطر الساقطة وتبللنا بدون جهد منا. أما شهوة الروح، فهي أشبه برذاذ الماء الكامن في الغيوم، لا يلامسها

ويبتلّ بها، إلا من كانت لديه الهمة للارتقاء إلى عليائها. وما شهوة الروح سوى القرب من أصلها والذوبان فيه.

ـ وهذا حقا ما لقنتني إياه، وما أؤمن به أيها المعلم. ولكن تبقى ثمة مدعاة للحيرة؛ ذلك أن الروح غالبا ما تبدو خافتة وذابلة لدى الكهل مثلا، بينما تكون مُشعّة مُضيئة لدى الطفل!

ـ إن الروح تتعالى عن الكم والكيف يا غريب، ونورها سرمدي واحد لا يتغير، ولكن النفس هي التي تزداد كثافة وتطفلا مع مرور السنين، فتحجب بذلك نور الروح. بينما تكون نفس الطفل شفافة نقية، وأقل تطلبا وشهوانية، فتسمح بعبور النور إلى الرائي، بدون عوائق كبيرة أو تشويه؛ فعندما تنجلي سماء النفس، تسطع شمس الروح، ولذة الحواس، هي الغيوم التي تحجب تلك الشمس.

ـ ولكن ماذا يفعل من تكاثرت الغيوم في سمائه من حيث لا يدري، ثم اشتعل البرق. فكيف له أن يحبس المطر؟

ـ عليك أن تخمد مصدر الصوت، لا ترددات الصدى يا غريب. فعندما تلجم أسباب الشهوة، سوف تصبح ماسكا لزمامها.

ـ ولكني لا أعرف ما هي، لكي أمسك بزمامها!

ـ فما الذي تودّ معرفته يا غريب؟

ـ أيها المستنير، وأنت العارف الذي عثر على أفق أطلّ منه على الأشياء كلها. ما الذي شبك الذكور والإناث بذلك الرابط القسري؟

ـ أخشى إن أخبرتك، أن تزداد شهوتك إلحاحا ويتعاظم توقك للنساء.

ـ ولكن أليس حريا بنا أن نسبر ماهية العلة، لكي نستطيع أن نستحضر الدواء؟

ـ حسنا يا غريب، وهاك هي الحكاية من بدايتها:

على ضفاف البداية، تثاءب واستراح المكان، وكان الزمان يلازمه ما بين مَدّ وجزر. والروح ساكن في سرمديته، لا تحدَّه ضفة أو بداية.

ثم ارتأى الروح أن يُبدع شيئا ما، ليبوح عبره عن لاشيئيته؛ فأوجد الجسد، ليُدَثّره وليكون قناعا له، وليستر هو للجسد عورة الفناء إلى حين. ثم كانت الكائنات.

ولما شاء الروح أن تستمرَّ الحياة في الكائنات، كانعكاس لذاته. كان لا بد له من حيلة، ليجعل الكائنات تحب بعضها، لكي ترغب بالحياة، ولتتكاثر. فأوجد من الكائنات الذكر والأنثى، ومن البشر الرجل والمرأة.

ثم نزع من المرأة دفء قلبها كله، وخبَّأه في أضلاع الرجل، ونزع من الرجل خلاصة ماء عناصره كلها، وخبَّأها في خفايا جسد المرأة. ومن ذلك الحين، والمرأة يضنيها البرد، هائمة وراء الرجل لتستردَّ منه دفء قلبها. والرجل يشقيه الظمأ، هائم وراء المرأة، ليستحضر منها ماء عناصره.

ثم دارت الأزمنة وتوالت العصور، والرجل والمرأة ما يزالان هائمين، لا ينهلان من بعضهما سوى المزيد من الظمأ. فلا هي استطاعت أن تثأر لشهوتها، ممن يرتهن عنده دفء قلبها، ولا هو استطاع أن يقتصَّ لظمئه، ممن تدفق ماء عناصره ملك يديها.

قال الغريب:

ـ إذن، فالتذكير والتأنيث ليسا مُجرَّد سبب لاستمرار الحياة، بل إنهما الدافع لها أيضا. ونحن نسير في طريق قسري، لا ندرك بكامل وعينا فحوى وجودنا فيه؛ ذلك أن طريق الحياة هو ليس فقط مرصوف لنا، ولكنه أيضا مرصوف بنا، و ينسلُّ عبر الفارق ما بيننا كأنثى وذكر، في امتداده نحو اللانهاية.

تلك الأنثى التي كانت، عندما أضاعت ذرى حنينها في جسد الذكر. ذلك أن الذكر كان أيضا، عندما أضاع عمق رغبته في جسد الأنثى. ثم هام كل منهما يرسم طريق الحياة، من خلال بحثه عمّا ينقصه في الآخر، من دون أن يقصدوا أو يدروا، بأن ثمة حيلة هم أداتها لكي تستمر الحياة.

ـ وأنا لست ممن يدعون لعدم استمرار الحياة في عالم الحواس يا غريب، وإنما أدعو لاكتشاف ماهية الحياة؛ تلك الكامنة ما وراء الأشياء والحواس. فالحياة ستستمر قسرا على أية حال، لأن القلة القليلة من البشر، هم فقط القادرين على التعفف، طلبا للخلاص.

ـ حسنا يا معلمي. ولكن ما دمنا ممن ينشدون الماهية، فما هي ماهية ذلك الشعور المبهم اللذيذ، الذي نعايشه أثناء رقصة الحياة؟ وما هي آلية حدوث تلك الومضة الغامضة، عندما يتبادل النساء والرجال ما لديهم من الدفء والماء؟

ـ إنها نفوس تعايش أزليتها يا ولدي؛ فرقصة الحياة هي أشبه بتقاطع نفسين في عمق الأزل، إذ أن تشابك الأجساد العارية هو مقدمة لتقاطع الأنفس، التي ترعد، فتومض أزليتها، مبشرة بإمكانية إضاءة نفس جديدة. وما الوميض أو الضياء سوى اقتباس لنور الروح. وما النفس سوى شمعة تضيئها الروح

الكلية، أو هي ومضة من نور تجرُّ وراءها سلسلة لامتناهية من الأنوار المطفأة. وفي تلك اللحظات التي ترقص فيها الأجساد العارية، يتم تفعيل تلك الأنوار المطفأة في داخلنا، لينبعث فيها النور من جديد للحظات. وهذا ما يمنحنا ذلك الشعور المبهم اللذيذ.

أعني أيها الغريب؛ إن عمر الفرد منا، ليس سوى بضعة عقود فحسب. ولكن تلك الفردية، هي امتداد لحياة عمرها ملايين السنين. فالحياة التي تسكننا، كانت قد وصلتنا عبر سلسلة لامتناهية من الأنفس المتمثلة بآبائنا وأجدادنا الذين تناسلوا لنكون، والذين لا يزالون ينبضون في أعماقنا. وتلك السلسلة التي نحن امتداد لها لم تنقطع أبدا، وإلا لما كنا موجودين أصلا. وكذلك فإن كل فرد منا، يحمل في عناصر دمه، أطياف كل من سبقوه من أنفس، أي أن عناصر دمنا مجبولة بالأزل. ذلك أن كل نطفة من ملايين النطاف الموجودة في ثمرة نفس الرجل، تحمل صفات عرقه ولونه ومزاجه وميوله، وكذلك نقاط قوَّته وضعفه وميوله المسبقة. بالإضافة إلى خلاصة تجاربه ومخاوفه الكامنة، هو وأسلافه وحتى أجداده القدماء. فنحن عندما نستحضر تلك النطاف، نكون قد طفنا من حيث لا ندري، على عدد غير محدد من أنفس أسلافنا، بكل ما فيهم من صفات. تلك الأنفس التي هي أشبه بدوائر الظل، أو الشموع المطفأة التي تتسارع تدريجيا بالحضور حول دائرة الروح لتستمدّ منها النور، بسرعة وغزارة يتناسبان مع جمال الآخر ولهفتنا نحوه. ولنكون قد دعوناهم للاحتفال بما يشبه العرس

في داخلنا، ومن ثم لينفضَّ العرس فجأة وليخلد المدعوون ثانية إلى النوم، مباشرة بعد بلوغ النشوة.

فإن أسعدهم العرس، رقدوا بهدوء وعمق وسلام، إلى أن يحين وقت نهوضهم ثانية، لكي يستنهضوا شهوتنا للتناسل مع الجنس الآخر، الذي يجدون في وصاله قيامتهم وبعثهم من جديد، وكذلك إمكانية بقائهم، من خلال استمرار صفاتهم في نسلنا. ذلك أنه للجسد الفناء، وللنفس البقاء المشروط بالتناسل، وللروح الخلود.

ـ يمكننا القول إذن يا معلم، بأن جسد المرأة هو النافذة التي نطلُّ من خلالها على فضاء أزليتنا.

ـ نعم يا غريب. فعندما يرى الرجل مثلا، امرأة فاتنة تتعرَّى، فإنه يرى من خلال جسدها أطياف أزليته، فيتوق إلى عناقه والالتحام به، لكي ينفذ من خلاله إلى تلك الأزلية. مثلما يتراءى للمرء أطياف مشهد ساحر من خلال نافذة مواربة، فيتوق لأن يقترب منها ويفتحها، ليطلَّ عبرها على فضاء ذلك المشهد.

وهذا هو حال النساء والرجال، إنهم ينظرون إلى بعضهم كنوافذ، يقفزون من خلال بعضهم، من أجل إطلالة خاطفة على فضاء أزليتهم. وبذلك فإن حبهم للآخر هو ليس حبا به لذاته، وإنما رغبة به، كوسيلة للمرور عبره إلى منتهى رغبتهم، وهم بالتالي لا يحبون سوى أنفسهم.

ـ ولكن ماذا عن المرأة، سأل الغريب، وما هي ماهية ذلك الشعور المبهم اللذيذ لديها. ما دامت ومضة نشوتها لا تمطر شيئا من مادة أزليتها، كما يحدث لدى الرجل؟

أجاب الشيخ:

ـ إن الرجل قد يبلغ منتهى شهوته بحَكّة من نسيم عابر، أما شهوة المرأة فهي سرّ تائه في مغاور سحيقة. وبما أن نشوة المرأة تحكمها مزاجية معقدة وهي غير متاحة دائما. فلذلك، وحرصا على استمرارية الحياة، فإن إفراز ثمرة نفس المرأة غير مرتبط بنشوتها، وهي ثمرة لا تحتاج إلى تفعيل كما عند الرجل، بل تأتي دوريا من نفسها.

ولكن مع ذلك، فإن تلك الثمرة تحمل في الحقيقة خلاصة أزلية نفس المرأة وصفات أسلافها، مثل ثمرة نفس الرجل. ولذلك فإنه عندما يتمّ طرح تلك الثمرة في داخلها، تصبح المرأة في ذروة شهوتها. ثم عندما يتمّ إيجاد متنفس لتلك الشهوة، فإن المرأة أيضا تحصل على ذلك الشعور المبهم اللذيذ من خلال معايشة أزلية نفسها، ولكن دون أن ترتبط نشوتها بطرح أي ثمرة؛ أي أن المرأة ترعد وتبرق، ولكنها لا تمطر بإرادتها. بل أن المطر لديها قد يكون سابقا للرعد والبرق ومُحَفِّزا لهما، على عكس الرجل. وهكذا، فإن مصدر الرغبة واللذة هو واحد لدى الرجل والمرأة، حتى ولو اختلفت الأولويات والنتائج.

قال الغريب وهو يرمق الشيخ بنظرة مواربة:

ـ إذن، تتعدد الأعراض وعلّة اللذة واحدة؛ فالنفس الفردية هي نفس جزئية معزولة أفقيا عمّا قبلها من أنفس أسلافها، والإنسان يتوق إلى إطلالة خارج محدودية نفسه الفردية، إلى فضاء أزلي بلا حدود. وليس هناك من وسيلة متاحة لتحقيق ذلك سوى رقصة الحياة، التي هي تفعيل للحياة الأزلية في داخلنا واستحضار لرحيقها وجني لشهدها.

ـ هي كذلك يا غريب، بل إنها هي خلاصة الحياة نفسها، تلك الحياة التي في داخل النفق. فرقصة الحياة تلهب فردية الإنسان من وقود أزليته، ولكنها لا تعتقه من أسر تلك الفردية؛ كشعلة تتأجج في قفص، سعيا منها للانعتاق منه، وعلى الرغم من أنها تنير آفاقا بعيدة في الفضاء، ولكنها مع ذلك تبقى مأسورة في داخل القفص. وما القفص سوى قيد الفردية الذي يشدّ اللهب إلى الشعلة.

ـ ولكن رقصة الحياة أيها المعلم، تضيء سلسلة لا متناهية من الشموع المطفأة في داخلنا ولو لحين. أفليس في ذلك تنوير لأنفسنا وتعزيز لدائرة النور في داخلنا؟

ـ لو كانت رقصة الحياة تعزز دائرة النور في داخلنا، لأصبحنا خلالها أقرب إلى التحكم بقدرنا. ولكنها في الحقيقة تجعل الإنسان لاهثا ومنقادا وراء بلوغ نشوته، غير مكترث بسواها. وبذلك يصبح أقل مسؤولية ودِراية بما يفعل، وفاقدا للسيطرة على قدره إلى حد بعيد.

فعلى الرغم من أن دائرة الروح في داخلنا هي واحدة، لا تتعدّد ولا تتجزّأ ولا تعتريها الزيادة أو النقصان. ولكن أطياف أنفس أسلافنا تصبح في داخلنا كسربٍ لامتناهٍ من دوائر الظل، التي تتهافت على دائرة النور لكي تتقاطع معها وتستمدّ منها نشوة الحياة والبعث من جديد، ولو للحظات. ولكن الظلال حجاب؛ لا تحجب دائرة النور بذاتها، وإنما تحجبنا عنها. كما الغيوم التي هي في الحقيقة لا تحجب الشمس، وإنما تحجب عنا نور الشمس فحسب.

يا غريب، إن التوق للإطلال على فضاء الأزل، هو السبب الكامن وراء الكثير مما يبنيه الإنسان ويهدمه في عالم الظلال. ثم أن لأزلية النفس مخالبا وأنيابا؛ ذلك أنه عندما تهبّ رياح الأزل بإلحاح، فإنها قد تجرف معها كل شيء، فيصبح الإنسان أشبه بورقة شجر ذابلة تعبث بها الرياح. هنا تقع الحماقات الكبرى، بل وأخطر ما يمكن أن يرتكبه المرء من حماقات. والإنسان يسعى إلى تحصين بوابته من الرياح، ولكن بوابة أنفسنا لا قفل لها، وهي أضعف من أن تقاوم رياح الأزل، القادرة على خلع أبوابنا والعبث بكياننا، إذا ما اشتد عصفها. لذلك، فالأولى بالمرء أن يتحرَّر من كيانه ويرصده من الخارج، حيث ثمة علو لا تصله أي رياح؛ فوحده من انتصر على الحياة، قادر أن يعايشها من خارج النفق.

قال الغريب:

- ولكن ألا يكفي أن ينتصر الإنسان على الحياة ويقهر الفناء في آن، من خلال استمرار نسله؟

ثم ما دامت الروح الكلية قد شاءت بأن تستمرَّ الحياة في الكائنات، كانعكاس لذاتها من خلال التناسل، فلماذا نعصي مشيئتها؟

وما دام نهر الوجود العظيم يسير بنا في اتجاه مُحدَّد بسلاسة وتناغم، فلماذا نقاوم تدفقه ونُجدِّف في الاتجاه المعاكس للتيار؟

أجاب الشيخ:

- ألست ممن ينشدون النبع؟

صمت الغريب، ثم أتبع الشيخ:

ـ يا غريب، إن الإنسان هو أشبه بكائن تائه، يحمل جرح الفناء في أعماقه عبئا ثقيلا، ويطلُّ على فضاء كيانه باحثا عن الخلود. ولكنه يرى انعكاس الخلود في مرآة أزليته، فيهيم نحو المرآة، ناشدا الخلود متجها إلى ضده.

إن رقصة الحياة هي تجربة النقائض يا ولدي؛ حيث يسعى المرء لأن يُرسل سربا من الوجد نحو ذرى غده، لكي يُرسي صلة وصل معه، ويستخير الدرب عن السبيل، فيشير الدرب إلى نفسه، ثم يقود المرء إلى أعماق الأمس المتواري في وادي أزليته.

يمسك المرء بحبل أزلي من أنفس أسلافه وينزلق في الوادي، حيث تبدأ نفسه بالانفتاح على سلسلة لا متناهية من أنفس سبقتها، فتصبح وكأنها فضاء من الأنفس.

ينهل المرء من حلاوة أزليته إلى أن يبلغ ذروة ما، من سلسلة الأنفس الكامنة فيه. فيستعر جرح الفناء من فرط الرغبة بالحياة، لينفلت المرء من نفسه ومن جلِّ ما علق به من كوابح وأخلاق.

فهناك في ذروة الوادي، يزول البرزخ ما بين النفس وأزليتها فيتعانقان، وبعناقهما يشتعل البرق في عمق ظلام الأزل، ليضيء بلحظات غامضة ملايين من السنين، تسافر فيها النفس إلى أزمان بعيدة في أغوار الماضي.

يغرف المرء من أزليته وينثرها في وجه الأبد، ليترك نسخة عن أزلية نفسه في نسله. ثم ما أن ينهي كشفه، حتى يدفعه حنينه لأن يبحث عن أبديته في المرآة من جديد.

ـ فماذا عن الروح أيها المعلم؟ ولماذا يجب عليها أن تهبط أو ترتقي؟ أفلا يمكن أن تكون الروح أيضا، كامنة في ثمار

أنفسنا أو في لقاء تلك الثمار؟ حيث يقتبسها الأبناء من الآباء في امتداد سلسلة أفقية متصلة، وليس من هِبة هابطة من علٍ.

أجاب الشيخ:

- إن هبوط الروح وارتقاءها أو حلولها وخروجها، ليسوا سوى مفردات قد صنَّفتها الأفكار والحواس، كإسقاط لمفاهيم هي خارجة أصلا عن نطاق عمل الأفكار والحواس؛ ذلك أن الروح لا تخضع لأحوال المكان والزمان، بما في ذلك الداخل والخارج والقبل والبَعد وهي ما وراء الوراء والأمام والتحت والفوق وما وراء الجهات.

- إذن أيها المعلم، يمكن القول أيضا، أن جميع الألاعيب التي تنغمس بها حواسنا من مفاهيم أو أحكام وكذلك من ملذات وأفراح أو أحزان وأتراح، هم من ألاعيب النفس فحسب. ولكن كيف للمتعة أن تتجلى على هيئة ألم؟

ذلك أن رقصة الحياة قد يرافقها أصوات وآهات، هي أقرب إلى الأنين والنحيب، أو حتى الصراخ والعويل. فكيف للمرء أن يتألم من فرط اللذة والسرور؟!

أجاب الشيخ:

- إن بلوغ النشوة هو أشبه بموت صغير معكوس أيها الغريب؛ فالإنسان يتألم عندما تداهمه أسباب الموت، أو عندما تبدأ الحياة بالانسحاب من جسده، ولكنه يتألم أيضا عندما تداهمه الحياة بسخاء أكثر مما يحتمل. ذلك أن رقصة الحياة تؤجج في أعماقنا بركانا من الحياة كان خامدا، عمقه هو عمق ما نستطيع بلوغه من أزليتنا. وذلك ما يُحطّم لوهلة حدود أنفسنا الفردية، وينثرها فجأة في فضاء الأزل.

إنها سكرة الحياة المتماهية عكسيا مع سكرة الموت؛ ذلك أن الحياة والموت، هما أشبه بعجلتين لعربة واحدة، يسيران بالتوازي والتوافق على سكة وجودنا، فكلما دارت عجلة الحياة، اقتربنا من الفناء، وذلك لأنها مُرغمة لأن تدور بالتوافق مع عجلة الموت؛ بفعل عامل الزمن. أما أثناء رقصة الحياة، فهما يدوران باتجاهين متعاكسين، حيث تحاول عجلة الحياة في تلك اللحظات أن تعاند الفناء، فتدور في الاتجاه المعاكس لدوران عجلة الموت، لتحدث احتكاكا يولد شررا. وذلك يتطلب بأن يمتلك المرء نوعا من الطاقة والحيوية، لا بدَّ من هدرهما.

وعلى الرغم من أن عجلة الموت هي التي ستقرر وجهة العربة في النهاية، إلا أنه في تلك اللحظات القليلة، تنتصر عجلة الحياة. فتنخطف العربة فجأة إلى الوراء، لتعود بنا لوهلة، إلى بدايات سكة الحياة. ولكن عربة وجودنا، وبعد أن تنهل من ينابيع الحياة الأولى، لا تلبث أن تعود إلى مكانها بعد النشوة، ولتعاود السير من جديد نحو الفناء. وهكذا، فإن ذلك السفر الفجائي البعيد، هو أشبه بما يمكن تسميته بزلزال النفس. إذ أنه يخلّ بتوازن العربة وبتناغم حركتها على سكة وجودنا، التي ستنتهي على أي حال عند تخوم الموت.

ـ ولكن ما الحكمة أيها المعلم في أن تتموضع أدوات أزليتنا في أقذر وأقبح ما في أجسادنا؟ ثم لماذا يجب علينا أن نمرَّ من خلال مَبوَلة، لكي نصل إلى رياحين الحديقة؟

أجاب الشيخ:

ـ لأن ذلك يجعل لقاء الأجساد أكثر خصوصية وحميمية، وكذلك لكي تبقى تلك اللعبة ذات طابع فطري بحت وآلية محورية للتناسل، تشترك فيها معظم الكائنات بمختلف رتبها ومقاماتها. ولتظل تجذبنا للانغماس بها، كمكاشفة مع الآخر حتى الفضيحة، وحتى الهتك النهائي. ذلك الآخر الذي نتوق لأن نطلَّ منه، ونصل من خلاله، إلى أقصى ما يمكن تحصيله من لذة.

ومن ثم، فإن لتلك اللذة أمد لا يطول، وذلك كي لا يهجر الناس شؤون حياتهم، ويظلوا في الحديقة يتنسمون رياحينها.

ـ أفلهذا السبب غالبا ما تقترن زيارات الأزل بالخصوصية والتستر والخجل، أو حتى الشعور بالإثم والخزي أحيانا؟ مع أنها الوسيلة الحصرية والمشروعة لاستمرار الحياة!

ـ ليس هذا فحسب يا غريب. ذلك أن رقصة الحياة تتطلب منا التعرّي، ليس فقط من ثيابنا، وإنما كذلك من أقنعتنا التي نتقنَّع بها أمام البشر؛ أي أنها تجبرنا على خلع قناع إنسانيتنا، أو إزاحته ولو قليلا، لكي يتسنى للوحش المحاصَر في داخلنا، أن ينطلق ويتنفس بُحريّة وفطرية ولامبالاة، وإلا فلن تكون هناك لذة حقيقية. وهذا ما نخجل من أن يراه فينا الآخرون.

ثم أن تلك الغريزة، هي في الحقيقة من أكثر الغرائز الحيوانية أصالة في البشر، ولذلك فهي أشبه بالحنين إلى الحيوان القديم وغير المُدَجَّن فينا. وعلى الرغم من أن البشر قد وضعوا لها الكثير من القيود والحدود والمقدّمات والحواشي، وأحاطوها باللباقة والتنميق، لإضفاء طابع إنساني عليها. إلا أنه ليس هناك من سبيل لأنسنتها كممارسة وفعل.

أما الشعور بالإثم والخزي، فسبب ذلك هو خيبة أمل، تشبه الصدمة الناتجة عن سقوط مفاجئ من مكانٍ عالٍ، كانت قد رفعتنا إليه الشهوة؛ وذلك ما قد يحصل، إذا ذهب المرء إلى أزليته وحيدا، بدون رفقة نافذة، أو إذا كانت النافذة ذات إطلالة سيئة. وكذلك إذا اصطدم المرء بنافذة، كان قد اندفع نحوها ولم تفتح له، أو إذا أطلَّ من نافذة، مُحرَّم عليه الإطلال منها.

قال الغريب:

ـ ولكن من أين يطلُّ من كانت جميع النوافذ، مُحرَّم عليه الإطلال منها؟

أجاب الشيخ:

ـ من كانت بغيته هي المطلق، إن نافذته هي فضاء لانهائي، يحتوي في ذاته على النوافذ كلها. فثمة غار علوي، يطل على فضاء مفتوح ما بين الأزل والأبد. وأنت كنت قد تشاغلت عنه يا غريب، ولا مناص لك من أن تيمم وجهك نحوه وتعتصم فيه بعيدا عن الناس، إلى أن تأتيك بشارة.

فلا تلتق بشرا، ولا تكلِّم ظلك وأشِح بوجهك عنه ولا تصغ إليه. ثم لا تسعَ إلى شيء ولا ترغب بشيء من عالم الظلال. ولا تنتظر أن يتحقق رجاء مُلِحّ، حتى تكفَّ عن الرجاء؛ فتحقيق رغبة مرجوة، هو وقود لإشعال رغبة أخرى، في سلسلة لا تنتهي من الرغبات. وتذكَّر بأن نيل الأماني لا يحقق بالضرورة سكينة للنفس، وإنما سكينة النفس هي المقدمة لتحقيق الأماني؛ فلا تبالِ بفرح أو حزن ولا لذة أو ألم، وما الفرح سوى عتبة من عتبات

الطريق، ومن لم يتحرر من عتبات الطريق، صارت عبئا على كاهله.

ولسوف تسير في طريق كله طرق، فلتكن بصيرتك هي الدليل؛ لأنه عندما تكثر المفترقات، لا يغفر الطريق للجواد أصالته، إذا كان الفارس ضريرا. فاحذر المفترقات يا غريب، وإلا فقدت جوادك وأضعت حالك.

لم يكن للغريب بدّ من التأهب ثانية للرحيل؛ فقد كان شوقه ما يزال يناديه ويستنهضه للذهاب إلى البعيد، حيث لا رفيق ولا سمير سوى الذات، ولا زاد إلا ما زوَّده به الشيخ.

***

الغار

لقد انتظرتُ طويلا طويلا
هنا على حافة الجنون، باحثا عن الأجوبة
طرقت الباب بلا كلل
وحين كان وانفتح الباب
يا للعجب
كأنني ما طرقت طيلة الوقت إلا من الداخل

جلال الدين الرومي

عند عتبة الغار، كان ثمة ما يستحثه لكي يخرج إلى النور، فدخل الغريبُ الغارَ متَّبعا الإشارة. وهناك وجد صلاة، ولكنه لم يجد المُصلّي! ربما سئم المصلي من تكرار شعائر لم يعد يفهمها، فانصرف عنها إلى أمر دنيوي أكثر إلحاحا وفائدة. أو ربما لفظته الصلاة خارج الغار، من بعدما هجر منها الفحوى، وصار يدور حول الطقوس.

كانت الصلاة تعبق بأنفاس طيّبة عتيقة، ولكن منتهاها كان أقصر مما يصبو إليه الغريب، وكان كشفه أبعد من حدودها. فلم يقرب الغريبُ الصلاةَ، بل جلس بمحاذاتها وصلَّى بصمت، خشية من أن تلفظه الصلاة خارج الغار.

ثم طال به الجلوس، وبينما كان الظل يترنَّح ما بين الحلم واليقظة، سمع الغريب هاتفا ينادي، فظنَّ أنه عابر سبيل يريد

قضاء حاجة. ولما همَّ بالخروج لملاقاته، أدرك بأن الصوت قادم من داخل الغار. فاتجه نحوه، وإذ بالهاتف يستدرجه إلى ركن في عمق الغار، المفتوح على سراديب جَمَّة.

ـ لقد انتظرتك طويلا وكنت أعرف بأنك ستأتي ثانية للقائي.

ـ وهل افترقنا يوما لكي نلتقي يا غريب! فكل ما في الأمر بأن كلينا مشغول عن الآخر، مع أن ظلنا واحد.

ـ أنا لا أعول على الظلال يا صاحبي. فنحن في الحقيقة اثنان، حتى ولو تشاركنا الظل.

أجاب الصاحب مبتسما:

ـ ولكن هل نسيت يا غريب، بأننا نحن أيضا ظلال لما لا نعرف، وبأن ذلك ما دفعنا إلى القدوم لهنا؟ وما نحن سوى سبب لظل، جئنا نبحث عن علته.

ـ لقد بتُّ أشعر يا صاحبي بأنني أجدِّف في نهر، هو أشبه بالبرزخ الذي يمتدّ ما بين العتمة والنور؛ فلا أنا بالعتمة ولا أنا بالنور.

ـ ولكن علامَ التجديف؟

ـ إن وجهتي بعكس التيار.

ـ ليس هذا وقت التجديف يا غريب؛ فلقد اقتربنا من تخوم البحر، حيث تنبع الأنهار جميعها وتصُبّ، وما عليك سوى الكفّ. ذلك أن الكفَّ أبهى من الفعل، ثم أن اللافعل في شرعنا هو سيد الأفعال. فاسلم شراعك للريح، إن من يسيِّر الريح هو الذي سيبلغك وجهتك.

ـ ولكن ماذا لو كانت العاصفة جاثمة في الأفق تتربص بشراعي؟

ـ أما عثرتَ على يقين؟

ـ إن طريق اليقين هو الذي عثر على خطاي فحسب.

ـ أفلم تؤمن بالطريق؟

ـ أشهد أن لا مكان إلا هنا، ولا زمان إلا الآن.

ـ علامَ نبقى واقفين هنا إذن يا غريب؟ فلندخل؛ إن الحقيقة لا تنجلي إلا بفراق المحسوسات.

ـ ولكن علينا ألا نبتعد كثيرا يا صاحبي، أو نلج أبوابا لا نعرف مخارجها، وحذارِ أن تتركني وحدي.

ثم أمسك الغريب بيد صاحبه، حتى يطمئن بأنهما لن يفترقا، ودلفا في سرداب طويل يخيم عليه صمت مطبق، إلى أن بلغا مفترقا تهبُّ منه نفحات ذكية.

تمتم الصاحب قائلا:

ـ أشتمُّ رائحة ماء!

قال الغريب:

ـ يبدو أننا قد ابتعدنا أكثر مما ينبغي، وليس من الحكمة أن نبتعد أكثر؛ فالسرداب قد بدأ يتشعَّب، والطريق قد أصبحت مهولة محفوفة بالمخاطر، ويلفّها ضباب بات يطمس إدراكنا.

ـ ولكن رائحة الماء تملأ أنفي.

ـ يا صاحبي، يبدو أن حواسك قد بدأت تفترق عن حواسي، أو أنني قد بدأت أخرج عن سياق المحسوسات، وأخشى أن وجودي نفسه قد صار على عتبات مغادرة الوجود.

ـ ولكن الوجود غير موجود!

ـ حتى ولو لم يكن موجودا بذاته، فثمة حواس تشهد بوجوده. وهل لي من حبال لأتمسك بها، أو من مُعين في هذا الخواء الشامل سوى الحواس، أو فكرة ما، لكي أقيت نفسي بها وأحفظ وجودها؟

ـ يا غريب، عندما يتعفف العقل عن مائدة الأفكار والحواس، تحصل الروح على قوتها. فلقد شارفنا على الخروج من النفق، ولسوف ننزع غطاء الحواس عن المحسوسات وعن الوجود بأسره. وما عالم الحواس سوى نفق أنت عابره على أية حال، فإن خرجت منه في الدنيا قبل ميعادك، فزت بالخلاص وأدركت الجانب الخالد فيك. أما إذا تشبثت به، فإن الموت سيخرجك منه عنوة، دون أن تعرف من وجودك، سوى أنك مجرَّد لقمة تلوكها الأيام، ثم تبصقها جثة، لتتركها بعد ذلك نهبا للديدان والذباب. فاستعن بالنفق للعبور، ولكن لكي تخرج منه، عليك أن تتجرَّد من الحواس والمحسوسات قاطبة، وإلا فإنك ستبقى دائم الرهبة من فراقهم بالموت. مع أن فراقهم في الدنيا، هو نفسه انعتاق من الموت، عبر استنارة تفتح لك باب الأبد.

ـ ولكن يا صاحبي، نحن نقف الآن على مفترق حالنا. ولكي أكمل المسير في طريق الماء، يتوجب عليَّ أن أنزلق وحيدا، خارجا عن وجودي، عبر سرداب مجهول، عميق الغور، لا يتسع لكلينا، وقد أتوه هناك ولا أتمكن من العودة إليك. فكيف لك أن تتركني للمجهول وأنت حالي؟ ثم ماذا لو أني عدتُ ولم أجدك، أفلم تسمع بمن فقدوا حالهم من أجل حفنة ماء؟

ـ يا غريب، ثمة مقصلة تدور على رقاب الكائنات، وقد آن الأوان لكي تعتق رقبتك، قال الصاحب، ثم انسلَّ بهدوء وتنحّى جانبا.

ولكن الغريب وجم، وأبى أن يبرح المكان.

ثم كان ثمة صوت يقول:

ـ أما زلت تهاب الخروج من حفرتك يا غريب؟

لقد كان هو نفس الصوت المبهم البعيد، الذي أوحى للغريب بالمسير نحو الماء.

فأجابه الغريب:

ـ أنا أحب النور يا سيدي، ولكن ما يزال في حفرتي حكايات وآهات وأفراح تشدًّني إليها. وما يزال فيها بساتين لأسقيها، ومواسم لأجنيها، وأشواك لأقلعها، وكرم كنت قد عصرته، ولسوف يحتاج بعض الوقت ليختمر، ونساء كنَّ قد واعدنني ولم يحضرن بعد. ولكنني اتوق أيضا للخلاص، فهلا أمكنني بأن أخرج إلى النور مع حفرتي، أو مع بعض ما أحببته فيها؟

ـ أولم تدرك بعد، بأن الحفرة هي أنت؟

ـ ولكن من أنت؟ سأل الغريب.

ـ أنا (أنا)ك.

ـ أنت أناي! ولكن من أنا؟

ـ أولم تعرفني بعد أيها الغريب؟

ـ أعِنّي لكي نتمايز بالأدوار، ولو قليلا، لأعرف من فينا هو أنا، ومن فينا هو الآخر.

ـ أنت أنت. فإذا خرجتَ من الحفرة صرتَ أنا؛ فأنت محجوب بك عني، ولذلك لن تراني.

ـ أرني إياك.

ـ أنا من فيض اللاشيء، وأنت تغوص في وحل الأشياء. فكيف لي أن أكشف لك الحجاب عني؟

ـ وهل تتركني في بؤسي؟

ـ تقرًّب مني أكثر، ولسوف تحني لك السماء زرقتها إلى حين.

ـ قرّبني إليك.

ـ أكثر من الصمت.

ـ ولكني لا أصلّي إلا لهُ.

ـ أنا وإياه واحد.

ـ فماذا عني؟

ـ أنت للفناء.

ـ كيف لك أن تتخلى عني، وأنت أنا؟

ـ أنت الهو، ولسوف تفنى أيها المسكين.

ـ الآن عرفتُ من تكون يا أنا؛ لك البقاء، وله الفناء.

عند مفترق أقطاب وجودي، سوف أعود إليك، ذاتا خالصة، ولن ينقصني سوى جسد، وبضع حواس، ونفس كنت قد أشقيتها بالتفكير وشقيت بها.

لم يُكشَف لي الغطاء، ولم أذق طعم الماء.

ولكني... الآن عرفتُ من تكونَ يا أنا.

***

وختامها امرأة

أن تسافر جيدا، خيرا من أن تصل.

بوذا

كان اعتكاف الغريب في الغار قد طال، ولما عاد إلى الشيخ، وجد الكوخ خاليا مهجورا. فانتظر فيه طويلا، إلى أن عرف من أحد التلامذة، بأن الشيخ قد أيقن بقرب موت جسده، فذهب ليُسلمه في غار بعيد، عند قمة أحد الجبال النائية، وبأن السبل إليه قد انقطعت.

هام الغريب على وجهه، إلى حيث لا يدري، إلى أن قادته خطواته ثانية إلى الصحراء. وهناك التقى بظبية شاردة، وكانا كلاهما هائمين يبحثان عن الماء. ثم كان في تقاطع نفسيهما نبع، انبثق من عمق الأزل، وفاض منه ما يشبه الماء، أو تمَّ تأويله كذلك.

لقد أضاءا كل ما لديهما من شموع مطفأة، من بعدما شرَّع كل منهما نافذته للآخر، ليطلّا من بعضهما على فضاء الأزل.

فعاندا الفناء، وسارا إلى بدايات سكة الحياة. ومن هناك أحضرا بذورا، فنثراها وسقياها، وحصدا غلاما وفتاة. ثم سارا يَداً بيَدٍ... في دروب ذلك العالم، الذي تملأه الظلال.

***

ـ تمَّت ـ

كوبنهاݘن

حزيران 2016

الفهرس